الحقيبة الزرقاء

رواية عصرية أدبية غرامية

بقلم الكاتب المتفنن

نقولا افندى حداد

محرر « الرائد المصري » سابقا ومؤلف كتابي « الحب والزواج »
و « مناهج الحياة » وروايات « كله نصيب » و « العين بالعين »
و « اسرار مصر » ومعرب رواية « زوجة بالاسم »
وكتاب « سنة الارتقاء في نظام الحكومة الانكليزية »

طبعت على نفقة مكتبة المعارف ومطبعتها

لصاحبها نجيب متري بمصر

مطبعة المعارف باول شارع الفجالة بمصر

سنة ١٩٠٦

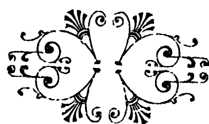
المغزى

« تشابُه الشمس والحب »

اذا وقع شعاع الشمس على بلَّورة انعكس عنها منحلاًّ الى ألوان الطَّيف الشمسي السبعة كما ترَى في قوس قُزَح. كذا الحبّ اذا وقع شعاعه على قلب انعكس عنهُ منحلاًّ الى عدة مزايا بشرية كالشمم وطلاب العلى والاقدام الى غير ذلك مما يتجسم من صفات المتولهين

في هذه الرواية تحليل واضح لاشعة الحب يتوسَّمه القارئ الكريم من خلال حوادثها

نقولا حداد



الفصل الأوّل

وردة ونرجسة

جامعة كمبردج في انكلترا من اكبر جامعات العالم او بالاحرى من اهمهنَّ وارقاهنَّ. وامثالها في الاصقاع المتمدنة قليلة جدًّا تُعدُّ على الاصابع ومعظم خرّيجي هذه الجامعة من فطاحل العلماء ولهذا يؤمها ابناء الاماثل والاغنياء الكبراء ويندر ان يتخرَّج اشراف الانكليز في غير هذه الجامعة وجامعة اكسفرد التي تضارعها

في ربيع غير بعيد العهد حفل منتدى تلك الجامعة بجمهور من كبراء الانكليز يوم توزيع الشهادات على الذين اتمُّوا الدروس في دوائر تلك المدرسة المختلفة من علمية وطبية وهندسية وحقوقية الخ

وقد استوجه انظار ذلك الجم الغفير في رحبة المنتدى الفسيح إشراق وجه صبوح كان يُلقي اشعَّة الجمال والابهة في فضاء ذلك المحفل فيزيده جلالاً . نعني بهِ محيّا اللايدي لويزا بنتن ابنة اللورد هربرت بنتن اف هندستون

فقد اشتهرت هذه الفتاة بمزيتين يندر ان تجتمعا في شخص واحد الاولى الحسن البديع حتى انها عُدَّت بين مفردات الحسان القليلات في انكلترا والثانية جمال العقل فكانت نابغة اترابها في الذكاء والمعرفة وقد

امتازت بقرض الشعر بين رصيفاتها في المدرسة وظهرت لها منظومات مطربة ابدعها « الوردة الصفراء » وهي حكاية مؤثرة في قصيدة طويلة اخذت شهرة في عالم الشعر والفتاة لم تتجاوز لذلك العهد العقدَ الثاني من العمر

ومع انها كانت بين الحشد في يمين المقدّمة كانت معظم الابصار تترامى عليها والقلوب تتهافت اليها وقد طمع باستيهاب فؤادها والظفر بيدها اكثر الشبان النبلاء والاغنياء في انكلترا . ولم يفقد هذا المطمع الا الجبان وضعيف القلب الذي ليس عنده برهان يقنع نفسه بكفاءتهِ لها بالرغم مما فطر عليه كل انسان من الغرور . وكثيرون من الشبان اجتهدوا ان يحصلوا على اوراق الدعوة الى تلك الحفلة لانهم علموا ان اخاها المستر روبرت بنتن سينال شهادة البكالوريا فلا بد ان تكون هي هناك

على ان المِس لويزا بنتْن لم تكن لتعبأ باحد من الحضور الذين كانوا يصوّبون سهام لواحظهم اليها فكانت تلك السهام ترتد عن مجنّ إِغفالها مكسَّرة او مشعثَّة الرؤوس. بل كانت تنظر في الغالب الى منصَّة المنتدى قلقةً كأنها تنتظر وقوف الخطباء الواحد تلو الآخر على ذلك المنبر السني

وكانت وقائع الحفلة مقصورة على اربع خطب صغيرة من نوابغ المنتهين من جل دوائر المدرسة وخطاب ضافي الذيول لاحد مشاهير العلماء وخطبة توزيع الشهادات للرئيس . فكانت لويزا تترقب انتهاء اول هذه الخطب بفروغ صبر الى ان كانت نوبة خطيب الدائرة العلمية المستر ادورد سميث وهو شاب في الحادية والعشرين من عمره بَشوش المحيّا سعيد

الطلعة رقيق الطبع رضيّ الخلق اشتهر بين اقرانهِ بطيب قلبه وكرم اخلاقهِ ونبالة نفسهِ كما اشتهر بحدة ذهنهِ وصفاء مخيلتهِ وعرف بينهم شاعر المدرسة

فلما وقف في المنبر دوت رحبة المحفل تصفيقاً لهُ . ولويزا بنتن اعتدلت في كرسيها ومالت شيئاً الى الامام كأَنها تستعد لان تستوعب مايلقيهِ هذا الفتى . وكانت خطبته قصيدة عنوانها «النرجسة الذابلة» وهي حكاية حال . وكأَنَّ ذلك الفتى الشاعر كتلة مغنطيس فما امتثل في المنبر حتى اجتذب اليه الابصار كلها عن مس لويزا بنتن ولم ينتهِ بيت من قصيدته الاَّ تبعهُ الحضور بدويّ من التصفيق



ولا نشغل القارئ الكريم بوصف تلك الحفلة الزاهرة وما اشتملت عليه من مجالي الابهة والجلال ولا سيما عند توزيع الشهادة فنضرب عن كل ذلك صفحاً ونتقدم الى ما كان عند انتهاء الحفلة

انتهت الحفلة وامتزج الناس بعضهم ببعض امتزاج الصهباء بالماء يحيون الصديق صديقه والقريب قريبه ويهنئون الشبان الذين نالوا الشهادات العامية والفنية على اختلاف انواعها ويتحادثون في ماراأوا وسمعوا من محاسن الحفلة وامجادها . وكانت « النرجسة الذابلة » موضوع حديث الكثيرين والفتى ادورد سميث مقصد جميع المهنئين تقريباً كأنه عريس خرج من تحت يد المكلل او ملك برز تحت التاج . تجاذبه الكل يُعرّفونه بانفسهم ويهنئونه الاَّ اللايدي بنتن وابنتها وابنها فبقوا واقفين في مكانهم يمر اصدقاؤهم بهم يهنئونهم بحصول اللورد روبرت على الشهادة العلمية . وكان روبرت

وادورد الشاعر صديقين حميمين جدًّا تشابهت اخلاقهما في اعتبارات جمة وان كانت قد اختلفت مواهبهما بعض الاختلاف لانه بينما كان يصعد "ادورد" في سماء التخيلات الشعرية كان "روبرت" يتعمق في اسرار الحقائق العلمية المادية وقد نال الامتياز في دراسة الطبيعيات

وكانت "لويزا" ملكة ذلك الحشد تتبع بابصارها ادورد في تخلّله بين الجمهور حتى رأته وقد صار قريباً من مكانها ووجهته اليها وكانت اذ ذاك تحادث صديقة لها تدعى مس ماري جنستون واخوها روبرت يشترك معها في الحديث وامهما لاهية بحديث مع اللايدي جنستون فقالت لويزا

ـ كيف رأيت خطب الاحتفال يا مس جنستون

ـ كلها شائقة واظنكِ انتِ فضّلتِ الشعريَّ منها. فضحكتا معاً

ـ نعم على الغالب . وانتِ ؟

ـ اقول لكِ الحق وان لم اكن شاعرة فقد رأيت ان قصيدة المستر ادورد حلية الاحتفال

ـ اتعرفينه ؟

ـ الآن تعرّفت بهِ فرأيت منه شاباً على غاية من التهذيب وانت يا مس بنتن اتعرفينه ؟

ـ كلاَّ الى الآن. مع انه صديق روبرت ادورد فلم يخطر لي ان اتعرَّف بهِ قبل الآن ولكن لما رأيت في لائحة (بروغرام) هذه الحفلة عنوان « النرجسة الذابلة » بجانب اسمه تقت ان اسمعه لأرى كيف يصوّر هذه النرجسة ذابلة ولما سمعته صرت ارغب ان اتعرَّف بهِ

فقال اخوها روبرت : ـ كيف رأيتِ صورتها يا لويزا

ـ الحق انها نرجسة ذابلة

ـ ها هو قريب لنا

ثم اومأ روبرت الى صديقه ادورد ان يتقدم . ولما دنا ادورد منهم قدَّمه روبرت الى امه واخته ومن معهما فبشت له اللايدي بنتن بشاشة الود لانها كانت تسمع عنه الثناء الطيب من لسان ابنها روبرت وتعرف انهما صديقان . وبعد ان هنأته عادت الى حديثها مع اللايدي جنستون ولم تزد على التهنئة لانها كانت مشهورة بانفتها وكبريائها

اما لويزا فبالرغم من خيلائها التي كسبتها من امها ابتسمت له ملءَ شفتيها لما قدِّم لها وصافحته كصديق قديم قائلة :

ـ اهنئكَ يا مستر سميث « بالنرجسة الذابلة » اما الشهادة فاهنئها بك لان مصور النرجسة هذا التصوير لا تزيده الشهادة تعريفاً وانما هو يزيدها فصاحةَ في بيان معرفتهِ

ـ اشكر لكِ تفضُّلكِ بهذا الثناء يا سيدتي. واراكِ قد انعشتِ النرجسة من ذبولها بهذا الاغراق في الاطراء

ـ لا اغراقَ يا مستر سميث . اتظن ان هذه الشهادة تعرّف العموم او الخاصة بك كما تعرفهم هذه القصيدة الرنانة؟ وحسبك شهادة دويُّ المحفل اليوم بصدى الثناء على اجادتك

ـ ان كان «للنرجسة الذابلة» محاسن يا سيدتي فانما هي مستمدَّة من « الوردة الصفراء » كما يستمد القمر نوره من الشمس

فصعدت حمرة الحياء الى وجنتي لويزا وومض برق الابتسام من بين شفتيها وقالت :

ـ اظنك قرأت « الوردة الصفراء » في مجلة « حياة المرأة » ؟

ـ بل حفظتها عن ظهر قلبي . ولما كنت انظم نرجستي كانت وردة المس بنتن توحي الشعر اليَّ . فمنها تنبهتُ الى كل تخيلاتي الشعرية من مجاز واستعارة وكأني كنت أنسخ لا ابتكر

ـ اذا كنت قد نسختَ حقيقة فلم تكن اميناً في النسخ لان النسخ جاء انق واصفى وابدع من المنسوخ عنه . ولكني لا اراك ناسخاً بل واضعاً نموذجاً لمن ينظم في مثل هذا الاسلوب الذي تحدّيته في نظم النرجسة . فانا اشكر لك هـذا الدرس الذي استفدته اليوم منها والذي ساستفيده في ما بعد من التأمل فيها متى قرأتها حيث تنشر

ـ لقد ابكمتني يا سيدتي فاني لا اقدر ان اباريك في مضمار المجاملة ولا اراني استحق هذا الاطراء الذي تتفضلين بهِ تنشيطاً لي

ـ معاذ الله ان اجامل مجاملة وانما هو اعتقادي اعلنته لك

ـ إذاً اؤمل ان اكون يوماً ما شاعراً لان ثناء من شاعرة مثل اللايدي لويزا بنتن هو اعظم شهادة اتلقاها اليوم وهو يمدني بقوة جديدة ويحمسني على استكداد قريحتي في النظم

عند ذلك قصرت مس بنتن الحديث كأنها انتبهت الى انها تطرّفت فيه الى ما وراء الحد السائغ لمثلها ان تجامل صديقاً جديداً . فاستأنفهُ اخوها المستر روبرت قائلاً لصديقه

ـ افكرك يا عزيزي ادورد مذ الآن بحفلة الأنس التي ستنعقد من الاصحاب والاقارب في قصر كنستون يوم الاثنين القادم . و بعد غدٍ تنتهي أليك رقعة الدعوة فان بدا اي مانع لحضورك ارجو منك ان تزيلهُ فاني احسب ان وجودك معنا ركن من اركان الحفلة لاني سا كلفك بمحاضرة بعض المدعوات عند اللزوم

ـ لا انسى ولن انسى يا عزيزي روبرت ذلك اليوم السعيد المنتظر بل اترقبه بصبر وسيّان ارسلتَ لي رقعة الدعوة او لم ترسلها فاني انضم اليكم واكون كواحد من البيت

ـ اني اسرّ جداً بدالّتك هذه يا ادورد واباد لك مثلها ولهذا اجتنب ان اشكرها لكَ لاني اعتبر ان الشكر والدالة متنافيان فلا يجتمعان

عند ذلك دنا احد اصدقاء ادورد فمال هذا اليه بعد اذ اعتذر من آل بنتن وانحنى لهم . وعما قليل اخذ الحشد يفرغ من المنتدى جماعاتٍ وافراداً

الحق ان لويزا ابنة اللورد بنتن قد سخت جداً بالثناء على ادورد سميث الشاعر الجديد خلافاً لعادتها وخلقها فانها يندر ان تندهش لمُدهِش او ان تُعجَبَ بمعجب او ان تقرّظ امراً حسناً . وان فعلت فبشحٍ وتقتير. كانت كذلك لسببين اولاً لانها مكتسبة من امها طبع الخيلاء والتيه والانفة وثانياً لانها كانت ذات مواهب نادرة. ولهذا لم يكن الناس ليستنكروا تيهها لانها كانت تستحقه

ولكن ما الذي استنزلها عن عرش افتخارها وازدهائها الى مجاملة ادورد سميث وتبليغ الثناء عليهِ واطراء شاعريتهِ مع انها هي شاعرة فكانَ

ينتظر ان تكون حسوداً ؟ — هناك قوة تفوق قوة الشمم والخيلاء وهناك جزء في الشخصية الانسانية يسود احياناً على سائر اجزائها . النفس هي الجزء الرئيسي في الشخصية الانسانية وانما تترأس بقوة الشمم . ولكن يحدث احياناً ان يتغلب الحبُّ على الشمم ويغتصب القلبُ عرشَ الرئاسة من النفس ويستوي مكانها في منصة السيادة على الشخصية ويكون الآمر الناهي

والظاهر ان روحَي لويزا وادورد تماسَّتا في الجو الاثيري فنشأ من احتكاكهما شررٌ ايقظ الحب في فؤاديهما وجعل يُلهبهُ . هكذا استقوى قلبها على نفسها وغلب حبها خيلاءَها فلم يصعب عليها ان تبالغ في اطراء ادورد وتقريظ شاعريتهِ

اما ادورد فقد لمست قلبه تلك الشرارة وايقظت حبه منذ قرأ « الوردة الصفراء » واعجب بها وصار يتوق ان يرى ناظمتها . نعم انه كان صديق روبرت اخيها ولكن صداقتهما حديثة العهد جداً لم تتمكن الاَّ في العام الاخير وقد زادها ادورد تمكناً بعد قراءة «الوردة الصفراء» اذ شعر بزيادة الميل الى روبرت وصار يراه مجموعة محاسن تُحبّ . كذا النفس اذا طمعت بامر عرفت كيف تمهد السبيل للوصول اليه . صداقة روبرت سبيل للتعرف بلويزا . هكذا توقَّع ادورد وهكذا صار

ولم يكن ادورد ليتمادى في محادثة روبرت عن اختهِ لئلا ينبه ظنونه فلم يحدثه عنها سوى مرة بعد قراءة قصيدتها مقرّظاً اياها — ولا ريب ان روبرت ابلغ الى اخته ذلك التقريظ في حينه وكان بلوغه بدء ترفرف الروحين

في الفضاء ليتصادفا ويتماسّا ـ ولذلك لم يقدر ادورد ان يعرف شيئاً عن لويزا لينشىء في مخيلتهِ صورةً لها وجل ما عرفه عنها انها درست في دائرة البنات في جامعة اكسفورد وانها انتهت في العام الفائت . وانما استنبط ذهنه من معاني قصيدتها صورة تقريبية في مخيلته . فلما رآها وحادثها وجدها تشبه الصورة الخيالية التي صوَّرها في ذهنهِ بعض الشبه بيد انها اسمى واتمّ . فعاد الى بيتهِ ملتهب الفؤَاد بحبها ولكنه قليل الطمع بها لانها من الاشراف وهو من العامة وبين الطبقتين حجاب كثيف يندر ان يُنفَذ منه. فكان الى ذلك الحين يقنع بالحب العقيم ويعلل النفس بلقائها يوم الاثنين القريب في حفلة الانس التي ستنعقد في قصر كنستن اكراماً لنيل اخيها الشهادة . وما كان سروره بشهادتهِ وباطراء الناس لقصيدتهِ نقطة في بحر سرورهِ بامل الالتقاء بها

الفصل الثاني

« ارشاد الى غرام »

في شارع ب . في ضواحي لندن منزل فخيم يضاهي قصور الاشراف أبهةً وجلالاً وحوله حديقة غناء تزيده سناءً وجمالاً وفي احدى غرف ذلك المنزل سرير انيق قد اضّجع فيهِ رجل مريضٌ استتم طور الكهولة واستوفى حكمة الشيوخ ولكنه لا يزال يستوعب همة الشبان وعزمهم يدعى المستر جوزف هوكر . وقد جلست لدى سريرهِ ابنته مس أليس هوكر على كرسي

هزاز تشتغل شغل الابرة وتحادثُ اباها

اما المستر هوكر فثرٌ كبيرٌ ذو معامل واملاك وليس له من الاولاد سوى ابنته أليس المذكورة وهي وريثته الوحيدة وقد عني بتعليمها وتهذيبها وتدليلها حتى جعلها كالوردة النضيرة تنتظر قاطفها . وقد تطاولت اليها نواظر قاطفيها فحرسها ابوها عنهم ضناً بها وطمعاً بان يعدَّ لها نصيباً امجد واسمى مقاماً . وكان في سرّهِ مشروع لهذا الامر يمهد له السبيل منذ عدة اعوام

اما أليس ففتاة رقيقة الجسم عادلة القوام عصبية المزاج لينة الجانب صبورة طائعة لاوامر ابيها مهما كانت قاسية لانه عوّدها هذه الطاعة منذ صغرها حتى بلغت الحادية والعشرين من العمر . وكانت امها قد توفيت الى رحمة ربها وهي حديثة ولهذا كان لابيها اليد الطولى في تربيتها

بينما كان منتدى جامعة كمبردج غاصًّا بالمحتفلين كان المستر هوكر يخاطب ابنته قائلاً :

ـ الآن في هذه الساعة يا أليس يكون ادورد ابن عمتكِ على المنبر يلقي قصيدته الرنانة « النرجسة الذابلة » ولا ريب ان المنتدى يدوي الآن بتصفيق الحضور استحساناً واعجاباً لان القصيدة بديعة . ألاَ ترينها بديعة يا اليس ؟

ـ بالطبع اراها كذلك . ولكن اتظن يا ابي ان الحاضرين يستحسنونها كما استحسناها نحن ؟

ولم تفت اباها ملاحظة ابتسامها وتورُّد خديها القليل

ـ من غير شك . اعيديها على مسمعي الآن يا أليس . ها نسختها على

المكتب . تناوليها

ـ كأنك تقول يا ابي انه اذا فاتك حضور الحفلة لسبب مرضك لا يفوتك سماع القصيدة في حينها

فضحك ابوها ضحكة الاعجاب بتأويلها هذا

ـ صدقتِ . اذاً لا فرق عندي بين ان يلقيها ادورد او تلقيها انتِ فكلا الصوتين مستحبٌّ عندي . ولا ريب اني تأسفت جداً لعدم امكاني حضور الحفلة ورؤية ادورد على منصة المحفل يلقي خطابه معجباً ويتناول الشهادة المدرسية مفتخراً . وتأسفت بالاكثر لعدم ذهابكِ انتِ يا أليس ورجوعكِ معه .

ـ كنت اود ذلك جداً يا ابي ولكن يستحيل ان اتركك مريضاً بين يدي الممرضة والخدَم

ـ ولكن حالتي لا تستوجب قلقكِ يا حبيبتي ولم تكن داعياً كافياً لان تحرمكِ حضور حفلة سارة هي الحفلة الوحيدة التي ينال فيها ابن عمتكِ شهادته العلمية

ـ اسفتُ جداً يا ابي ولكن لم يطاوعني ضميري ان اتمتع بمحاسن حفلة كهذه وانت تتقلب على فراش الحمى

ـ بارك الله فيكِ يا حبيبتي

ثم تناولت أليس القصيدة وجعلت تتلوها بتأنٍّ وكانت عند كل مجاز جميل تقف او يستوقفها ابوها ويتباحثان في المغزى وابوها يظهر الاعجاب وهي تبتسم الى ان انتهت القصيدة

ـ ارأيت يا أليس ان ادورد نابغة وسيكون يوماً من فحول الشعراء إن شاءَ الله وينال شهرة واسعة . الاَ يسركِ ان يكون ادورد كذلك ؟

ـ من غير شك يسرُّني وافتخر بهِ

ـ اتفتخرين بهِ كحبيب او كقريب يا أليس ؟

فامتقع وجه اليس حياءً من هذا الالماع وخشيت ان يتمادى ابوها في استطلاع ضميرها واكتشاف اسرار قلبها ولذلك اطرقت صامتة

ـ مالي اراكِ قد خجلتِ يا ابنتي . أعارٌ ان تحبي ابن عمتك وهو نابغة اقرانهِ ؟ وهل تظنين ان عواطفك نحوه خفيت عليَّ فاني كل يوم الاحظها فيكِ مراراً وامس سمعت اسمهُ يتردَّد بين شفتيك وانتِ تحلمين واول امس كنتِ في الحديقة جالسة تتأملين فبمن كنتِ تفكّرين ؟ اليس بادورد ؟

فابتسمت اليس تحت محيًّا مكفهر وانكمشت ضمن ثوبٍ من الخجل حتى كادت تصبح نصفها حجماً

ـ لا تظني ان حبكِ له خفي عليَّ يا ابنتي ولا تظني ان هذا الحب يسوؤني بل يسرني جداً اذا كان ادورد يبادلك مثله . فحبي ادورد يا أليس حبيهِ فهو النصيب السعيد الذي اعددته لك منذ حداثتهِ الى الآن واسوف ترين انك تكونين معه سيدة تفاخر الدوقات والبرنسسات والكونتسات .

فتهلل وجه أليس بشراً وخفق فؤادها طرباً لهذا النصح لانه جاءَ كالمرهم لجرح فؤادها

ـ ان ادورد اعظم جداً مما تعرفينه وتتصورينه يا اليس وهو نفسه لايدري قيمة نفسهِ ولكن ان صرتما زوجين ـ ولا اهنأ الا اذا صرتما.

كذلك ـ ترين المجد الذي يحفُّ بك وترين ادورد يتبوأ عرش مقامه الذي كُتِم له في صدرِ الدهر

ولم تكن اليس لتقدر مغزى هذا الكلام قدره ولا ابتعد فكرها الى ما فيه من الالغاز بل ظنته كلاماً اعتيادياً يقصد بهِ ابوها مجرد الترغيب والتحبيب ولهذا كانت تراه فضولاً لان قلبها اصبح في غني عن كل ترغيب وبعد سكوت هنيهة استأنف الكلام قائلاً :

ـ بل ازيدكِ علماً ان هذا المجدَ المعدَّ لكما مترتب على اقترانكما يا اليس فان كان لكما حظ سعيد وقدّر لكما ان ترقيا الى قمة مجدٍ باهر وتجاريا اشرافَ انكلترا وتمتعا بكل حقوقهم ـ ان كان قد قدّر لكما هذا النعيم فتقترنان وان لم تصيرا زوجين عاش ادورد كابسط عامة الناس ولم تفرقي انتِ عن العامة الاّ كما يفرق اغنياؤهم عن فقرائهم

وكانت اليس تسمع هذا الكلام مُطرقة حياءً لا تنبس ببنت شفة . وماذا تقول ؟ بيد انها فكّرت في كلام ابيها هذا قليلاً ولكن شجون هواها غلبت على افكارها فما لبثت ان محت من مخيلتها كل فكرة غير الفكر بما يتعلق بادورد حبيبها . ثم عاد ابوها يضرب على ذلك الوتر نفسه

ـ نعم لا تخجلي يا ابنتي ان تحبي ابن عمتك ولا تكتمي حبه فهو حب موافق لك وله . ولو كنتِ تسلمين قلبك لسواه ايًّا كان لكنت انكره عليك لاني اضن بك على غير كفئك ولا ارى اكفأَ لك من ادورد . ولا اخشى ان تتهوَّري في محبته قبل ان تستميليه اليك وتضطريه ان يطلب يدكِ من تلقاء نفسهِ

ولا ريب ان القارئ الذي يجهل خفايا المستر هوكر واسراره يستهجن حديثه هذا مع ابنتهِ . بل هو مستهجن على اي حال . ومهما كانت الاحوال الداعية اليـهِ فلا يليق باي الابوين ان يُغري ابنته او يزين لها ان تحب شخصاً لم يطلب يدها بعد

كثيرون من الوالدين يرتكبون غلطة المستر هوكر نفسها ولا يندر ان تفضي هذه الغلطة الى نتيجتين وخيمتين الأولى ان الفتاة تخلع برقع الحياء وتتبذل الى ان يخشى من تهورها . والثانية ان الفتاة كقطعة مغنطيس ذات طرف جاذب وطرف دافع فجاذبيتها في حشمتها وتعففها ودافعيتها في تحببها وتبذلها . وكلما ألوت الفتاة الى الشاب ابتعد عنها ومهما سعت وراءه لا تقدر ان تناله . وبالعكس كلما اعرضت عنه اقترب منها حتى اذا رضيت نالها



الفصل الثالث

« شفيقة لا عشيقة »

في مساء ذلك النهار عاد المستر ادورد سميث من ايدنبرج الى بيت خالهِ المستر هوكر وفي يده شهادته العلمية وفي صدرهِ آمال وفيرة وفي قلبهِ جذوة حبٍ . فاستقبلته أليس بثغر بسَّام وتلاثما تلاثم الاخوين وتقدما الى غرفة المستر هوكر فرأى ادورد خاله مستلقياً في سريره فقبَّل يده وذاك قبله قبلات الاب الحنون وفي مقلتيه دمعات فرح وسرور وعلى محيا ادورد تهلل وبشر

ـ لقد ساءَني جداً خبر مرضك ايها الخال العزيز

ـ لا يسؤكَ يا حبيبي فانه عرضيٌّ والحمد لله

ـ كيف ترى نفسك اليوم

ـ احسن جداً . والطبيب يقول ان نوبة الحمى الاخيرة كانت نتيجة فعل الكينا الذي اخذته . ولي الامل ان تكون هي النوبة الاخيرة وغداً او بعد غدٍ اخلي السرير

ـ اشكر الله على سلامتكم يا سيدي

ـ اهنئكَ يا بنيَّ بشهادتك و بما قدَّرته لك من ثناء القوم على قصيدتك البديعة . و بينما كنتَ تلقيها في محفل جامعة كمبردج كانت لو يزا تلقيها عليَّ هنا وقلبي يشترك مع المحتفلين هناك بتصفيق الاستحسان

لحنى ادورد رأسه حنية التواضع والحياء واستمر المستر هوكر في اطرائهِ له

ـ بل نهنئ انفسنا بك ايها الحبيب ونتمنى لك مزيد الارتقاء والنجاح واسأل الله ان يوفقك في مستقبلك القريب الذي اتوقعه لك سعيداً مجيداً ان شاء الله

وكانت عينا المستر هوكر مغرورقتان بدمع الحنان والانعطاف وعينا ادورد تجاوبهما بدمع افيضَ من دمعهِ

ـ لاأعجب ان اسمع منك يا سيدي هذا الدعاء القلبي وانت مني في منزلة الاب الحقيقي العطوف. ألست انت الذي ربيتني وعلمتني؟ وهل اعرف اباً سواك ؟ فلا بدع ان تسرَّ بان تراني راقياً ناجحاً . واسأل الله ان

يقدِرني على ان اكون لك ابناً طائعاً بارًّا

ـ بل أسرُّ يا حبيبي بان ارى ثمرة لغرس يدي واتحقق ان عنايتي بك لم تذهب سدىً

وبعد حديث هنيهةٍ قرع خادم المائِدة الجرس المؤذن بالعشاء فقام ادورد وأليس الى المائِدة وجلسا الى الخوان متقابلين . وبعد هنيهة ابتدأت أليس بالحديث قائلة :

ـ أسفتُ جداً يا ادورد على اني لم استطع ان اترك ابي تحت فعل الحمى واحضر الحفلة في كمبردج

ـ وانا أَسفت جداً وتكدرت لمرض خالي ولا سيما في هذا الوقت الذي كنت اشتهي فيه ان اراكما في تلك الحفلة الزاهرة مع من رأيت من اهل اقراني الذين كانوا يصفقون لهم عند تناول شهاداتهم

ـ هل افتكرتَ فيَّ يا ادورد وانتَ تفتخر بمجدِكَ اليوم ؟

ـ أَتشكّين بذلك ؟

ـ كلاَّ . لا اشك لاني اذكر الآن جيداً اني لم افتكر بسواك يوم نلت شهادتي في السنة الماضية . ولكن شتانَ بين يومي ذاك ويومك هذا وبين شهادتي وشهادتك

وكان ادورد يسمع هذا الثناء ويُعجَب بنفسهِ ويعجل في تناول الطعام ومضغهِ وازدرادهِ على غير انتباه كأنه يتم واجباً عليهِ وذلك لان خمرة الفوز اسكرتهُ

ـ كنتُ اتمنى جداً يا أليس ان تكوني بين الجمهور وتري اعجابهم بابن

عمتكِ وتسمعي اطراءهم له

ـ اذاً افتكرتَ بي كثيراً ؟

ـ أليس افتكاري بك طبيعياً ؟

ـ اذا كنتَ قد افتكرتَ بي الافتكار الطبيعي فكأنك لم تفتكر اذاً

ـ عجيب . ماذا تعنين ؟

ـ اعني انه ليس بدعاً ان تفتكر بي وتودَّ ان اكون مع من كان في الحفلة لاني ابنة خالك وكلانا ربينا في ظل بيت واحدٍ . فافتكارك بي على هذا النحو يُنتظَر من كل واحدٍ حاله مع قريبته كحالكَ الظاهرة معي. ولكن سؤالي هو هل افتكرتَ بي اكثر من المنتظر ؟

ـ افتكرتُ بكِ يا أليس كثيراً . ومهما كثر افتكاري بك فهو المنتظر . الا يُنتَظر مني ان افتكر بكِ كل الافتكار ؟

ـ نعم نعم . اذاً لا تزال تحبني ؟

ـ وهل يمكن أن تنقضي محبتي لكِ

فضحكت لويزا قائلة بلهجة الهازلة :

ـ قلت في نفسي : لعلك صادفت من يشغلك عني

فوجم ادورد عند هذه العبارة والتهبت وجنتاه اذ خطرت له في الحال مس لويزا بنتن وكادَ يبدو اضطراب منه يفضح أعراض سرّه

ـ هبي اني صادفتُ سواكِ يا أليس فهل تبطل محبتي لكِ ؟ هل انسى عشرة عشرين عاماً؟ وهل انسى رسائلكِ لي ونحن في المدارس؟ هل انسى ايام تنزهنا في قرى الريف ؟ ما الداعي لارتيابك في حبي؟هل رأيتِ فيَّ تغيراً ؟

ـ كلاّ ليس التغير فيك يا ادورد بل فيَّ

ـ اتغيرتِ انتِ عليَّ ؟

ـ نعم تغيرت ولكن ليسَ عليك

ـ كيف ذلك ؟

ـ صرت اشد حباً لك يا ادورد

واغرورقت عيناها بالدمع فادرك ادورد تمام قصدها

ـ أوَلم تحبيني قبلاً تمام الحب يا أليس ؟

ـ نعم احببتك من كل قلبي حبًّا تاماً

ـ فكيف احتمل حبُّكِ المزيد اذاً ؟

فهمست أليس لنفسها والعرق يندى على جبينها قائلةً :

ـ لا ادري

ـ وانا احببتكِ من كل قلبي ولا ازال احبكِ

ـ ولكن .....

فصمت ادورد هنيهة كأنه يريد ان يختم هذا الحديث لانه خاف ان ينتهي بما يكدرها او يكدره . وقد تعذر عليه وهو مرتبك ان يتخلص الى حديث آخر . فعادت أليس الى « لكن »

ـ لكن اود ان تعرف يا أدورد ان حبي لك الآن يختلف عن حبي لك قبلاً

ـ مهما يكن فهو حبٌّ يا أليس وانا احبك قدر حبك لي بل ازيد

ـ كلاّ يا ادورد حب الشبيبة يختلف جداً عن حب الصبوة . ألا

تعترف بذلك ؟ فايّ حبّ تحبني انت ؟

وكان صوتها يرتجف شيئاً ولكنها كانت تتذكر كلام ابيها الآخر لها فتتشجع في الحديث

ـ نعم أعلم أنَّ المحبة تنمو مع السن فتصير أسمى واشد اخلاصاً فانا احبك حباً يسابقني في النمو يا أليس

فتململت من زيغانه عن المعنى الذي كانت تحوم حوله وتحاول ان تجتذب ذهنه اليه فلم يُجتذَب وعادت تتلمَّظ الطعام بسرعة كانها أُفحِمت ولم يعد امامها مجال للحديث فابتسم ادورد لفوزه في هذه المحاورة ونشط الى استئنافها لكي يتغلب تمام الغلبة ولا يدع باباً مفتوحاً تدخل فيه أليس الى هذا الحديث في حين آخر

ـ اني لا عجب كل العجب يا أليس من تعمقكِ في البحث عن حبي لك كانك تشكين فيه وما كنت اظنك تشكين مهما طال عليه العهد وتغير الزمان ولا ارى موجباً لهذا الحديث الآن

قال هذا الكلام وعلى محياه لمحة الجدّ فتكلفت أليس الابتسام كأَنها تتلافى عبوسته وقالت :

ـ لم اشك يا ادورد بحبك لي وليس غرضي ان احققه . وانما بغيتي ان اكشف لك سر فؤادي لتعلم ان حبي لك الآن ليس كحبي لك في الماضي ...

وتوقفت على عزم ان تستمر في البيان فاجابها في الحال

ـ اعلم انه صار اقوى مثلما صار حبي لك

ـ ليس تغيره من حيث القوة يا ادورد بل من حيث النوع

ـ لا اعلم كيف الحب يتنوع

ـ انت شاعر وعلاَّمة فكيف لا تعلم تنوُّع الحب : كيف تشعر بالحب ؟ واذا كنت لا تشعر بانواعه فكيف تنظم ؟ انا اعلم ان الشعر من الشعور فلا اصدق انك تجهل ان الحب انواع يختلف بعضها عن بعض كل الاختلاف

ـ مثلاً ؟

قال ادورد هذه الكلمة بلهجة التهكم كانه يهزأ من فلسفة أليس ويأمن فوزها عليه في الجدال وإِفحامها اياه

ـ أتريد ان اضرب لك مثلاً على تنوُّع الحب ؟ أم ان افصل لك انواعه تفصيلاً ؟

ـ اكتفي بالمثل ومنه يتضح التنوُّع

ـ صدقتَ . ألا تعتقد ان حب الزوجين نوع وحب الاخوين نوع وحب الآباء للابناء نوع وحب الاصدقاء نوع الخ ؟

فضحك وقال :

ـ وهل هناك انواع أخر ايضاً ؟

ـ نعم ولا داعيَ لعدها كلها

ـ واي نوع من هذه يجب ان يكون حبنا يا أليس

ـ لا تقل يجب لان ليس في الحب وجوب بل قل اي نوع هو

ـ اي نوع هو ؟

ـ هذا ما اسألك اياه

ـ أيكون حبنا غير حب الاخوين العزيزين يا أليس ؟ او هل من حبٍ اسمى واقوى من هذا الحب ؟

وكان هذا الكلام كومضةٍ كهربائية عبرت في بدن أليس فزلزلت عظامها ونفضت عضلاتها وكادت تجمِّد الدم في عروقها . فشدَّدت قلبها وطرحت نقاب الحيآء عن محياها معتقدة انها لا تأثم بهذا الافصاح

ـ نعم يكون يا ادورد . واود ان تعلم ان حبي لك حب فتاةٍ لشابٍ وهو اقوى جداً من حب الاخوين والابوين بل اقوى من كل حبٍ حتى من حب الزوجين . اما ادركتَ ذلك؟

فاكفهرَّ وجه ادورد لهذا الافصاح وانعقد لسانه فازدادت أليس جرأةً في الحديث

ـ اني احبك يا ادورد حبًّا يسقمني ببعدك ويشغل فكري بك دائماً ويحرمني النوم ويمنعني عن كل لذة لا تشترك انت فيها معي . واعدُّ نفسي اسعد العاشقات لانك اجمل المعشوقين شكلاً وعقلاً ولانك مقيم معي في كل حين امام عيني كما انك في قلبي

عند ذاك اخذ أَدورد المسألة بالجد ورأى انه من الواجب ان يعلن حقيقة قلبهِ لئلا تخدع أليس وتبني القصور في هواء الاوهام

ـ ولكن حب الاخوين بيننا اغلب من كل حب يا أليس . نحن ربينا في بيت واحد وتعوَّدنا منذ الطفولية ان نعتبر انفسنا اخاً واختاً . وقضينا نحو عشرين سنة تحت هذا الاعتبار فكيف نقدر ان ننقض في ساعة واحدة

ما بنته طبيعة الحال في عشرين سنة . مهما تغيرت احساساتنا وتنوعت عواطفنا وترقَّت اميالنا فلا اقدر ان انظر اليكِ الاَّ كاخت. اعاشرك يا أليس واتنزَّه معك واراقصك واضمك واقبلك وانا اشعراني اقبل واضم واعاشر اختاً . ولا ارى قلبي يحيد عن هذا النوع من الحب

فامتقع لون أليس واكمد اكمداد الشمس في حين الكسوف الكلي ورأت قصور الآمال التي كانت تبنيها في هواء الاوهام هابطة امام بصيرتها

ـ اما انا فاحبك يا ادورد حب عاشقةٍ لاحبَّ اخت

ـ استغرب ذلك جداً يا أليس . . .

ـ لا تستغرب . ألا ترى في كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة نوعاً من التحوُّل ؟ فالتحول ناموس طبيعي يطلق على كل شيء حتى الحب . الا ترى البرتقالة في اول امرها خضراء ثم تبهت خضرتها شيئاً فشيئاً حتى متى نضجت مع الزمان صارت مشبعة الصفرة . هكذا مرور الزمان وانفصالنا الواحد عن الآخر في المدارس كفيا لتحوُّل الحب من اخويّ الى غراميّ

وكان بعد ذلك سكوت طويل فادورد يتأمل في كيف يحوّل قلب أليس عنه وأليس تتأمل في ماذا يكون جوابه وتفكر في كيف تجتذبه وقد طمعت جداً في استمالتهِ لانها ظنت ان إعلان حبها له يستميلهُ . لم تعد أليس الى هذا الحديث في ذلك المساء ولا في اليوم التالي وانما كانت تلاطف ادورد جداً وتضاحكه وتعنى بهِ وبكل شيء يخصه ولا تدَّخر جهداً في مسرتهِ حتى جعلت الاهتمام بهِ شغلها الشاغل . اما هو فكان يبسم لها عند كل امر ويشكر لطفها ويتجنب ما استطاع عنايتها واهتمامها بهِ

الفصل الرابع

« ضغط على قلب »

وفي مساء اليوم التالي وردت الى ادورد رقعة الدعوة من صديقه اللورد روبرت بنتن ففضها بثغر باسم ووجهٍ باشٍ كأنه يتوقع ان يرى فيها كتابة من يد لويزا ولكن لم يَرَ . ولماذا يرى ؟ — لم يستغرب أَن لا يرى كلمةً منها في رقعة الدعوة لانه يعقل الامور جيداً . ولكن هو القلب يطمع بالكثير حتى بالمستحيل . فهو لم يكن ينتظر كتابةً من لويزا ولكنهُ كان يتمنى ان يرى كتابة منها لهُ . وكأَنَّ قلبه يقول : « ماذا يمنع ان تكتب لي حرفاً اذا كنتُ وقلبها قد اصبحنا في مهد حبٍّ واحدٍ . لماذا تقضي النظامات الاجتماعية ألاَّ يتكاتب المحبان حالما يصبحان حبيبين ؛ ولماذا تقوى هذه النظامات على الحب بل لماذا تخضع القلوب المستقوية بالحب للتقاليد والعادات البشرية »

صهْ ايها القلب ما تلك النظامات والعادات الاجتماعية الاَّ وحي اله الحب بل هي مستمدة من نظامات الحب ونواميسهِ نفسها . لويزا تتمنى ان تكتب كلمة لادورد ولكن هناك ناهيًا اقوى من الآداب الاجتماعية ينهاها عن ذلك وهو اله الحب . وكذلك ادورد يود ان يكتب كلمةً للويزا ولكن اله الحب يمسك يده . لماذا يفعل اله الحب هكذا ؟ لانه لو كتب لها وكتبت له في بدء حبهما لانتهى حبهما على اثر ذلك

وكان ادورد يقرأ الرقعة بكل بشاشة وخالهُ ينظر اليه

ـ اری هذه رقعة دعوة يا ادورد . ايمتنع ان تخبرنا اي الاصحاب يدعوك ؟

ـ صديق حميم وقد تمكنت صداقتنا في هذا العام في المدرسة وهو اللورد روبرت بنتن . ولا تجهل يا سيدي معزة صديق المدرسة

ثم ناوله الرقعة فقرأ المستر هوكر :

«اللايدي واللورد بنتن يدعوان المستر ادورد سميث الى حفلة انس صباح الاثنين الساعة التاسعة صباحاً — الى السادسة بعد الظهر في قصر كنستون في حي كنستون »

وكان أدورد يرى لمحبة عبوسةِ تموَّج على وجه خالهِ وهو يقرأُ الرقعة ولم يدرِ ما الذي كان يدور في خلدهِ . ولكن بعد هنيهة سأله المستر هوكر قائلاً :

ـ وهل تابي الدعوة ؟

ـ وعدتُ

ـ متى ؟

ـ لما انتهى الاحتفال المدرسي اخبرني اللورد روبرت انه مزمع ان يعقد حفلته هذه وطلبَ اليَّ بالحاح ان البي دعوته فوَعدته

فتبرَّم المستر هوكر قليلاً وسكت فعاد ادورد يسأله :

ـ الا البي الدعوة ؟

ـ تقول انك وعدت

ـ نعم . وهل من محظو

ـ كلاَّ

ـ اذاً لماذا لا اراك راضياً ؟

ـ لا بأسَ . على اني قلما أسرُّ بصداقة قومٍ كهؤلاء يعتدّون باحسابهم ويتكبرون على الناس ويستخفون بالغير ويحتقرون العامة ولو كانوا اسعد حالاً منهم واوسع نفوذاً واعرض جاهاً . يفعلون كل ذلك لمجرد انهم متسلسلون من الاشراف مع ان هناك كثيرين غيرهم من طبقتهم اودع من الحمام يحترمون الفقير قبل الغني والوضيع قبل الرفيع

فبُهِتَ ادورد من كلام خالهِ الذي لم يكن ليرتاب بصحتهِ وقال في نفسه « لا بد ان يكون خالي أخبر مني » ولكن قلبه ابى ان يصدق هذه التهمة فسأل خاله : —

ـ وهل تعرف أُسرة اللورد بنتن يا سيدي ؟

ـ كلاَّ وانما اسمع عنها وعلى الخصوص عن اللايدي بنتن فيقال انها متعجرفة جداً فلا تجامل احداً

ـ ولكني لم ارَ شيئاً من امائر الخيلاء على وجهها لما قُدّمتُ اليها بل جاملتني بكل بشاشة . ولالاحظت شيئاً من ذلك في ابنها اللورد روبرت كل مدة عشرتي له

ولم يذكر ادورد اسم لويزا لالانه يأبى ان يبرهامن الكبرياء بل لكيلا ينبه افكار خالهِ الى شغل قلبه بها

ـ اما اللورد روبرت صديقك فقد يكون كما تعتقد بهِ واما امه اللايدي بنتن فمشهور امرها . وكونها بشَّت لك مرة لايدل على ان البشاشة من طبعها لانها تعرف ان اللياقة تقضي عليها ان تكون لطيفة فتتكلف اللطف على

قدر الامكان . ولكن اذا حاضرتها برهة قتلتك بكبريائها . هل حادثتك ؟

ـ كلاَّ . بل اكتفت بتهنئتي بعد اذ قُدِّمتُ لها ثم عادت الى محادثة اللايدي جونستن

فهزَّ المستر هوكر رأسه ضاحكاً وقال :

ـ لو تسنَّى لك ان تعاشرها بضع دقائق لثبت لك صدق قولي . ولطالما شكا الكثيرون من تجبرها وتكبرها

فاستاءَ ادورد جداً من هذه التّهم التي القيت على اللايدي بنتن وابى ان يصدقها ولكنه لم يقدر ان يكذّبها لان خاله يلقيها وهو لا يشك بصدق قوله . وحاول ان يدافع ولكن ليس عنده برهان ولا حجة لانه لم يختبر اختبار خاله ولم يعلم علمه فقال :

ـ اذاً ما رأيك :

ـ رأيي ان لا تذهب

ـ ولكن وعدتُ

ـ تعتذر

ـ يتعذَّر عليَّ الاعتذار

ـ ليس شيء متعذرٌ في الوجود

ـ وماذا يضرني في ان البي دعوة صديقي وان كانت امه متعجرفة ؟ ليست لي علاقة معها

ـ ضرر ادبي اهم من الضرر المادي

ـ ما هو ؟

ـ الهوان الذي لا تطيقه النفوس الابية

ـ لا اظن ان اللايدي بنتن تستهين بضيوفها الذين تدعوهم الى منزلها مهما كانت متكبرة ومتعجرفة

ـ هي لا تقصد ذلك . ولكن ظهورها بين ضيوفها كله كبر وخيلاء لا يطيقهما من كان عزيز النفس

ـ ولكني شابٌ لا شأن لي معهم وانما اكون اكثر الوقت مع اقراني واذا شعرت بهوان اعاتب في الحال وانسحب

عند ذلك اقتصر المستر هوكر الجدال واصرَّ على رأيه قائلاً :

ـ اما أنا فلا استصوب ذهابك واما انت فلك ان تفعل ما تشاء

ـ لا اشاء ان اخالف رأيك ايها الخال ولكني اود ان البي الدعوة اولاً لاني وعدت وثانياً لاني انتظر ان اسر مع عدد عديد من الاصحاب

ـ وكانك لا تسرّ بعشرتنا يا ادورد ؟

ـ انا معكم كل حين

ـ ولكن اول امس اتيت و بعد غدٍ تعود ؟ فسرعان ماملات الاقامة معنا

وضحك المستر هوكر ضحكة التمليق . وسكت ادورد اذ استنكف ان يجادل خاله في امرٍ لا يرغب فيه ولكنهُ اسف جدًّا لقيام هذه العقبة في سبيل اجتماعه بلويزا مع انه كان يُعلِّل نفسه بلقاء سعيدٍ جدًّا فانتظر عساه يسترضي خاله قبل الوقت المعين



الفصل الخامس

« جرح في قلب »

وفي اليوم التالي كان ادورد كل الوقت باهت البشاشة قليل الكلام نادر الهزل والمزاح كعادتهِ مع أليس . ولم تكن أليس لتجهل ان سبب امتعاضه هو عدم رضاء ابيها عن تلبيتهِ للدعوة . فحاولت بكل جهدها أن تسرّه فلم تستطع فحارت في امره لانها لم تكن تنتظر ان ابسط الحفلات يخطف فؤاده عنها . وما علمت ان هناك حبيبة غيرها شغلت قلبه وسلبت لبه

ولما كانا جالسين عصارى النهار في شرفة المطلة على الحديقة قالت له :

ـ ما كنت اظنك ياادورد وانت معي يمقتك سببٌ بسيط جداً . ألا تجد في حبي لك مؤنساً يغنيك عن انس تلك الحفلة ؟

ـ لا ريب انكِ آنس لي من كل انيس يا أليس ولكني وعدت صديقي مشافهةً ان البي دعوته ولهذا يشق عليَّ جداً ان اخلف بوعدي

ـ تعتذر له

ـ باي عذرٍ مقبول صادق أعتذر ؟

ـ باي الاعذار مهما كان بسيطاً

فتأمل ادورد هنيهة وقال :

ـ كلاَّ لا اعتذر . يجب ان اذهب

ـ يظهر انك ستذهب لانك تود ان تذهب لا لانك مقيد بوعد

والاّ لما تعذّر عليك الاعتذار

فاجاب ادورد على الفور كأنه يجاوب عن تغيُّظٍ خفيّ :

ـ نعم قد اصبتِ

فابتسمت أليس أبتسامة الحليم قائلة : ـ ليتني اعلم ماذا تتوقع هناك من المسرّات لعلي اقدر ان اوفرها لك هنا

ـ اتوقع اصحاباً متعدّدين اقضي الوقت معهم باللعب والهرج والضحك والمذاكرة

ـ صدقتَ ان عشرتي لا تغنيك حتى عن عشرة الاصدقاء الاعتياديين فكيف ترضيك ان كنت تطمع بعشرة اشخاص اخصاء غيري ؟

والظاهر ان أليس احسّت ان قلب ادورد مشغول بحبّ فتاة غيرها واستدلّت على ذلك من تغير اسلوبهِ في محاضرتها ومن قلقهِ في بعض الاحيان وتشوقه الى حضور الحفلة في قصر كنستون .

وكان سكوتٌ برهة وهي تغالط نفسها في ما اذا كان ادورد يحبها كما تحبه . واما ادورد فكان لاهياً عن هذا الامر بفكر آخر وهو كيف يسترضي خاله ليذهب الى قصر كنستون ويرى لويزا . وقد كاد يتفرقع من الغيظ الذي يكظمهُ وشعر ان تحرش أليس بهِ كان كنكاية لهُ في إبّان تغيظه

اما أليس فقد اصبحت على شفا اليأس وصارت أرغبَ من قبل في استكناه افكارهِ واكتشاف ما في فؤادهِ من نحوها وأَقلقها جداً ماراأته من فتورهِ . وغاظها بالاكثر سكوته بعد كلامها الاخير كأنهُ جوابه

الفصيح . فاكمد وجهها وصغرت نفسها و بعد هنيهةٍ اقتضبت ذلك السكوت بصوت خافت كأن مصاريع فؤادها تتكلم لا شفتيها :

ـ ماذا افعل لكي اعجبك يا ادورد حتى تحبني كما احبك ؟

ـ تعجبينني يا أليس واحبك

ـ ولكن اتحبني من نوع حبي ؟

ـ احبك كأختي

ـ ولكني احبك يا ادورد غير حب الاخت للاخ احبك حبّاً شديداً فهل تحبني هذا الحب ولو بعضه ؟

رأى ادورد ان الضرب على هذا الوتر كل حين بعد آخر يصمُّ اذني قلبه فآثر ان يقطعه واستسهل ان يقطعه في تلك الساعة عينها وهو متغيظ . بل رأى ان المغالطة والمراوغة في هذا الحديث غير محمودة العاقبة وان الافصاح فيها افضل جدّاً

ـ احبك يا أليس اشد احب ولكن حب اخ لاخت لاني لا ارى حبّاً آخر يقدر ان يتغلب على هذا الحب و يعزله ليقوم مقامه

ـ اذاً تخيّب آمالي

ـ بل اكرس نفسي لخدمتك يا أليس

ـ لا اطلب منك الاَّ ان تبادلني فؤادك

ـ افهم جيداً . . . . ليس في طوقي يا أليس . ليت قلبي طوع ارادتي . على اني ابذل لك اعزَّ من قلبي . ابذل نفسي أثمن ما في شخصيتي . ابذلها لك رخيصة ولكن قلبي لا اقدر عليهِ . انت اختي وانا اخوك الى الابد

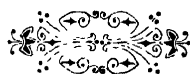
فطفر الدمع من عيني أليس واُتكأت على يمين الكرسي ووضعت خدها في كفها وجعلت تكفكف دموعها بمنديل في يسراها . ثم تنهدت قائلةً :

ـ آه ! منكودة الحظ

ـ لا تقولي كذا يا أليس فان عديداً من الشبان الاغنياء والوجهاء وذوي المقامات العاليـة يلتمسون يدكِ وبينهم كثيرون ممن يفضّلون عليَّ بمزايا ذات قيمة ويعدُّون لك مكانة ساميةً . فما انتِ منكودة الطالع البتة

عند ذلك اتى المستر هوكر ملتفاً بوشاح كبير من الصوف لانه ملَّ الاضّجاع في سريره . ثم قعد في جانب الشرفة بعيداً عن مجرى الهواء واجال نظره في أليس وادورد ففهم حاصل ما كان بينهما فلم يتعرض لشيء من الموضوع بل دخل في مواضيع عمومية كأنه لم يلاحظ امراً . ولكن ادورد لم يقتنع ان خاله خفي عليه ظاهر فشل أليس

بعد العشاء ذهب ادورد الى « النادي الادبي » الخاص بخرّيجي جامعة كمبردج . والمستر هوكر استقصّ أليس ما دار بينها وبين ادورد من الحديث فاخبرته فحواه لانها استحت ان ترويه لابيها بحروفه فلم يُعقّب المستر هوكر عليه بكلمة بل تأمل برهة وانفرد في سريرهِ



الفصل السادس

« حديث او حديث عنه »

في مساء اليوم التالي لليوم الذي انعقدت فيهِ حفلة الأنس في قصر كنستون اجتمع ادورد بصديق حميم من اقران المستر وليم جراي في النادي الادبي فجرى بينهما الحديث الآتي :

ــ اسفنا كثيراً لعدم وجودك معنا يا ادورد

ــ عساكم استوفيتم كل ضروب المسرات

ــ سررنا جداً وكلٌّ من كان هناك كان يُسائل عنك حتى قلق اللورد روبرت بنتن واكتأب لما طال تأخُّرك . وكانت مس بنتن تقول « لا بد ان يأتي . انا أوكد انه يأتي مهما قام في سبيله من العوائق لانه يحبُّ روبرت جداً »

فعضّ ادورد شفته السُّفلى وشعر بسهم من الألم اخترق فؤاده وكاد يلعن خاله لانه منعه عن حضور الحفلة وظل ينظر الى وليم كأنه يستزيد حديثه فاستمر هذا يقول :

ــ ولما وصل تلغرافك وعُرِف انك لن تأتي بسبب انتكاس خالك الفجائي تكدر الكل

ــ لا تدري كم اغتظت من نكسة خالي فكان غيظي منها اشد من حزني عليه لاني كنت اود جداً ان اكون بين اصحابي في هذه الحفلة النادرة

ــ بالحق انها نادرة يا ادورد ولو كنت معنا لكان سرورنا ضعفيهِ بلا شكّ

ـ كيف كان اهل البيت لكم

ـ لم يدَّخروا جهداً في مؤانستنا ومجاملتنا

ـ قيل لي ان اللايدي بنتن متكبرة بل متعجرفة جداً فهل لاحظتَ شيئاً من ذلك ؟

ـ نعم لا تخلو من الاعجاب بنفسها وحب الابهة ولكنها كانت لكلٍ منَّا في منتهى اللطف . ولا يخفى عليك ان سيدةً كبيرة كاللايدي بنتن لا تقدر ان تتصابى لتلاعب شباناً مثلنا وتضاحكهم ومع ذلك كنا كلنا ممتنين منها للطفها

ـ عجيب . قيل لي انها تتجبر جداً الى حد ان تزدري محاضريها

ـ كلاَّ البتة . نعم انها تترفع وتعجب بنفسها وتفخر ولكن كما يليق بسيدة جليلة مثلها . ولا اظنك تنكر جلال اللايدي بنتن

ـ الحق ان الجلال لائق بها . وكيف كانت مس بنتن ؟

ـ اما مس بنتن فكانت كالحمامة البيضاء . جاملت كلَّ واحد ولعبت وضحكت ومزحت مع كل منا . يا لله ما اسنى هذه الملكة الصغيرة فان كل شيءٍ فيها جميل يا ادورد — حسن صورةٍ وجمال خُلُق وكمال عقل وذكاء حاد ومعرفة واسعة . كانت بهجة الحفلة بل كانت ينبوع كل سرور

فتألَّقت عينا ادورد غيرةً وهمَّ ان يسأله ماذا قالت عنه وكيف ذكرته . ولكن التعقُّل ألجم لسانه عن هذا الاستفهام فحام حوله بسؤال آخر

ـ اما قرأَت لكم شيئاً من نظمها الجديد ؟

ـ نعم قرأَت قصيدة صغيرة نظمتها لاجل الحفلة خصوصاً . بالحق

انها شاعرة يا ادورد ولكنها تُعجَب بشعركَ جداً وكانت تسميك « شاعر النرجسة »، فتقول « الآن يجيء شاعر النرجسة . بعد قليل يجيء شاعر النرجسة . قال شاعر النرجسة كذا في قصيدتهِ »

فاتضح في وجه ادورد صباح البشاشة عند سماعه هذا الكلام . وزقزق قلبه في قفص صدره فرحاً وقال عن غير تروّ : — « ثم ماذا ؟ »

فابتسم وليم لهذا السؤال وقال : — اظنها تميل اليك يا ادورد

فتورَّد وجه ادورد وقال :

ـ لا . لا تظن

ـ بل تميل اليك لانها ذكرتك كثيراً

ـ وعلى مَ تميل اليَّ يا اخي ؟

ـ لانك شاعر وهي تحب الشعر

ثم تطرَّقا في الحديث الى مواضيع مختلفة . وبعد قليل انصرف ادورد الى البيت قبل ميعاده المعتاد لانهُ آثر الاختلاء بنفسه

اضَّجع في السرير عند الساعة العاشرة ولكن النوم لم يضَّجع في جفنيه فكان يترجح على سرير التأملات ويترنح في سفينٍ من القلق على امواج الافكار وباله يحوم حول امرين : الاول هل تحبه لويزا ؟ والثاني لماذا ابى خاله عليه ان يحضر هذه الحفلة

اما ان لويزا تحبه فراجح عنده لان ما رواه لهُ صديقه المستر وليم جراي اكثر من برهان دامغ على حبٍّ لم يزل في مهد الطفولية . فاذا كانت لويزا تذكر ادورد هذا الذكر على اثر مقابلة واحدة ـ تذكره تكراراً

بالاطراء والمدح وتذكره آملة بمجيئه وتذكره غائباً اكثر مما تذكر الحاضرين – اذا كانت تذكره هكذا فالارجح انها تحبه . اما « لماذا تحبه » فلانه استوفى الصفات والمزايا التي تبتغيها في من تحب فكانه صيغ في قالب امانيها فجاء طبق محبوبها المُتَخَيَّل . اقول المتخيل لان لكل خال من الهوى حبيباً خيالياً يتخيَّل صورته في ضميره كما تلهمه نفسه . ولكن ما الفائدة من حب ادورد ؟ هل ترضى به بعلاً ؟ ذلك ما لم يؤمله ادورد ومع ذلك كان قانعاً بان يكون ذا صلة حبٍّ بها وكفى

اما لماذا ابى خاله عليه حضور هذه الحفلة فلم يعلم . حار في هذا السر . وقد ازدادت حيرته لما علم ان اللايدي بنتن ليست كما صوّرها له خاله تمثال خيلاء ومثال عجرفة بل هي كسائر السيدات النبيلات الجليلات قدراً والكبيرات عمراً

ارتاب ادورد في نكسة خاله ورجح عنده انها حيلة مصطنعة يرمي بها المستر هوكر الى غرضين في وقت واحد : الاول ان يمتحن احساسات ابن اخته نحوه ليرى هل يرق فؤاده ويمتنع عن اي تمتُّع ليبقى ساهراً على سريره او يتركه في فراش المرض ويمضي غير معبيءٍ به . والثاني ان يعرقله عن الذهاب ليعلم ما اذا كان في قصر كنستون جاذب قوي جداً يجتذبه بالرغم من داعي نكسته التي تستبقيه في البيت



الفصل السابع

« تنبيه لجاهل »

في ضواحي لندن الشرقية حيٌّ متفرق المنازل ينتهي ببعض الجنائن والغيـاض التي تتخلل البيوت . وسكان تلك البيوت هم زُرَّاع تلك الجنائن يستغلون منها البقول والفاكهة . وفي احد اطراف ذلك الحي حانوت حقير يحتوي على اهم حاجيات المجاورين من اشربة روحية ومآكل وامتعة منزلية ونحو ذلك . وفي الحانوتِ شيخ يناهز الستين وقد بيَّض الشيبُ شعر رأسه ولحيته ولم تزل فيه بقيَّة من همة الشبان يُدعى المستر جاكوب داي وله ابن في الثامنة عشرة من العمر يدعى هنري داي وكلاهما يتناوبان الاقامة في الحانوت

وكان ذلك الفتى هنري يذهب في بعض الايام للصيد في الحقول المجاورة . وفي ذات يوم من ايام ذلك الصيف الذي جرت فيه حكايتنا هذه ذهب للصيد واوغل في تلك الحقول حتى بَعَدَ جداً عن المنازل واصبح في القفر . وبينا يجول هناك اذ صادف من بعيد شبح انسان مُلقى في سفح رابية بين الصخور فاسرع اليهِ فرأى فتى صيَّاداً مغمى عليه والدم يسيل من احدى ساقيهِ فانحنى فوقه واجلسه ليرى ان كان فيهِ رَمقٌ . فتنهد الصريع في الحال وأَنَّ وفتح عينيه وقال « بربك أَغثني »

فقال له هنري : « ماذا حدث لك وماذا اصابك ؟ »

قال « كنت اتنقل فوق هذه الهضاب اتتبَّعُ صيداً فزلَّت قدماي

وتزحلقتُ وتدهورتُ بين هذه الصخور من هذا العلاء الشاهق ولم اشعر الاَّ وانا في حجرك لا ادري ماذا تعطَّل من اعضائي »

فقال له هنري : « سليم ان شاءَ الله . لا تخف »

وعند ذلك كان يفحص بدنه فوجد بعض رضوض في اعضائهِ وجرحاً بسيطاً في ساقهِ فمسح الدم عنها وعصبها وقال « هلمَّ بنا آخذك الى حانوتنا وهناك نضمد جرحك ونرى لك مركبة تقلُّك الى منزلك »

فنهض وكان يمشي في اول الامر متثاقلاً وهنري يسنده الى أن نشطت قدماه وصار يمشي كالمعتاد بلا تثاقل

وكان عصارى النهار لما ادركا الحانوت فاستقبلهما المستر داي بكل اهتمام ولما عرف حكاية الحادثة جعل في الحال يهتم بجرح الفتى فغسلهُ بماء البوريك مما عنده وعاد فعصبه . وجلس الفتى ساكن الروع يشكر لهنري وابيه عنايتهما ثم قال :

ـ اني جائع جداً فماذا عندك يا عم لآكل ؟

ـ ما تشاء من الاسماك المقدَّدة وبعض اللحوم المبرّدة

ـ بل هاتِ ما تشاء فاني استلذُّ كل طعام بعد هذا الجوع

وعند ذلك رتَّب الشيخ مائدة صغيرة وجلس الفتى اليها يتلمَّظ الطعام وجلس الشيخ وابنه ازاءه يذا كرانهِ فقال الشيخ :

ـ متى خرجتَ للصيد يا بنيَّ ؟

ـ في فجر هذا النهار لاني صحوتُ باكراً جداً فوجدتُ الطقس جميلاً فآثرت ان اقضي الصباح في البرية اتصيد . وقد اوغلت في القفر حتى صار

الظهر فقفلت راجعاً وحدث لي ما حدث

وكان الشيخ ينظر اليه ويتأمله كانه يذكر تلك السحنة أو ألِف بعض ملامحها وشعر في قلبه بانعطافٍ اليه . وكان يظنه احد ابناء النبلاء أولاً لدلالة سيمائه عليه وثانياً لنضارة جسمه وحسن بزَّته

ـ أتتفضل علينا يا بنيَّ ان تعرّفنا بشخصك الكريم ؟

ـ ادورد سميث

ـ سميث اسم لاسرات متعددة مختلفة فمن اي سميث حضرتك ؟

ـ أسرتنا خاملة الذكر فان المرحوم ابي من قرية بعيدة تدعى « دون هل »

ـ اظنك تمزح يا بنيَّ لاني ارى في محياك سيماء الكبراء وعليك مظاهر الاغنياء

ـ كلا لا امزح يا سيدي فان اسرة ابي خاملة الذكر ولكن اسرة امي غنية وقد ربيت في بيت خالي وعشت في ظله

ـ اظنك ربيت يتيماً حتى تولى خالك تربيتك

ـ نعم يتيم الابوين لاني كنت رضيعاً يوم مات ابي . وامي ماتت على اثر حمى النفاس على ما قيل لي

فتفرَّس فيه الشيخ وهو فاتحٌ فاه كانه يسمع بفمه وباذنيه معاً وقال له :

ـ ما اسم ابيك ؟

ـ جان سميث

ـ لا تؤاخذني على كثرة السؤال فان الانسان كلما شاخ كثرت سؤالاته

ولعلها مفيدة في بعض الاحوال

ـ سل ما تشاء يا عم فاني أُسَرُّ بعشرة الشيوخ وان كنت فتىً حديث السن لاني استخلص من كل حديث فائدة

ـ من هو خالك ؟

ـ هو المستر جوزف هوكر . لعلنا معارف يا عم داي

فانتفض الشيخ نفضة ضعيفة جداً واعتدل في مجلسه وقال :

ـ لا. وانما اسمع باسم خالك المستر هوكر . أليس هو صاحب معمل القطن في شارع ب . ؟

ـ نعم هو

ـ هو مثر كبير ؟

ـ نعم. ألَعلك تعرف ابي ؟

ـ ربما . لا اتذكر جيداً لاني برحت لندن منذ عشرين عاماً الى ليفربول ومنذ خمسة اعوام عدت الى هنا وفتحت هذا الحانوت

ـ ولكني اراك تدقّق في التساآل كأَن لك سابق معرفة بأبي او بخالي

فقال الشيخ متلجلجاً :

ـ كلا. وانما استغربت كيف ان اباك خامل الذكر وامك من اسرة غنية ولهذا تطرَّفتُ بالسؤال

ـ ذلك ما لا ادريه وهو بالحقيقة يوجب الاستغراب

ـ ألا تعرف احداً من اقارب ابيك ؟

ـ كلاًّ ولا سمعت عن احد منهم

ـ عجيبٌ . أما خطر لك أَن تستفهم عن نسب ابيك ؟

ـ ربيت في بيت خالي ولم يدعني داعٍ للبحث عن اهل ابي

ـ ولكن اذا لم يدعك داعٍ لذلك أفلا تسأل وتبحث من قبيل العلم بالشيء

فخجل ادورد بعض الخجل من هذا التأنب اللطيف ورأى ان المستر داي محقٌّ بهِ فقال ربما انتهز فرصة مناسبة لتحقيق ذلك ان شاءَ الله

ـ تفعل حسناً

وبعد ما انتهى ادورد من تناول الطعام دفع الثمن اضعافاً فردَّه الشيخ داي الاّ الثمن المعتاد فاخذه فعجب ادورد من ذلك لانه كان ينتظر ان يطالباه باجرة باهظة جزاء خدمها له فقال لهما في هذا الشأن . فقالا : — انما فعلنا واجباً والواجب لا يستحقُّ اجرةً . فقال : — بماذا اكافئكما اذاً ؟

فانفرد بهِ الشيخ قائلاً : ان كنت تشاء ان تتفضل عليَّ بمعروف فانظر خدمةً لابني هذا في منزلكم العامر لاني احب ان تتدمث اخلاقه في منازل الكبراء والاَّ فاذا بقي هنا وهو لا يرى الاَّ بعض الزُّرَّاع شبَّ شرس الخلق خشن الآداب وان كان قد تلقن مني المبادىء القويمة

ـ ارسله الينا في اول فرصة في شارع ب . نمرة ٢٦٥ وانا اكلّم خالي بامره

ثم شكر ادورد لهما فضلهما واثنى عليهما ثناءً طيباً وودَّعهما وركب مركبة عابرة ومضى

وبالفعل ذهب الفتى هنري داي الى منزل المستر هوكر بعد اسبوع وتعين رقيباً على المطبخ ونيط به شراء لوازم الطعام

الفصل الثامن

« حديث قلبين »

اما ادورد فمكث بضعة ايام في البيت يعالج جرحه ورضوضه وأليس تؤانسهُ وتلاطفه وتعنى به وتتودَّد وتتحبَّب اليه جهدها وادورد يعترف لها بحبهِ الاخوي ولا يزيد حتى ضاقت ذرعاً . وكان المستر هوكر متنحياً عن هذا الموضوع كأن لا علم له بما يجري بينهما من المحاورات ولكنه لم يألُ جهداً في ملاطفة ادورد والتحبب اليه . وكان ينصح له ان يتمرَّن على الشغل معه ليتولى ادارة اشغاله كلها بعد حين واما ادورد فكان يعير كل تلك الاحاديث الأُذن الصمّاء لان قلبه مضطرم بحب لويزا ولبه منشغل بها

وما كاد يشفى حتى ورد اليه كتابٌ من صديقه اللورد روبرت بنتن هذا نصهُ :

« عزيزي ادورد

«سنقضي يومَ بعد الغد كله في « مونتمار » ولكي نستوفي كل سرورنا نلتمس ان تكون معنا فان لم يتعذر عليك ذلك هيَّا الينا الساعة الثامنة صباح الغد الى قصر كنستون حيث نركب جميعاً ولي الامل ان نستعيض من عشرتك ما فاتنا في الحفلة السابقة روبرت بنتن »

فطوى ادورد الرسالة وجعل يفكّر هل يعرضها على خاله ويستأذنه بتلبية الدعوة او يكتم امرها ويذهب في الموعد المعين من غير علمه وعلم

أليس. ذلك لانه صمم ان يذهب على اي حال ولا يدع رادعاً يردعه البتة. واخيراً رأى ان من الجبن ان يكتم امر الدعوة ويذهب سرًّا وان خاله مهما كان له من الفضل والسيادة عليه فلا حق له ان يستبدَّ في تدريبه ويتحكَّم بامياله وعواطفه ولا سيما لانه لا يأتي امراً فريًّا في مصاحبة اسرة شريفة كاسرة اللورد بنتن. وقرَّر في بالهِ انه اذا صادف تعنتاً من خاله جادلهُ غير هيَّاب. وفي الحال نهض وذهب الى غرفة المستر هوكر وكان الوقت صباحاً والمستر هوكر لم ينزل من البيت بعد فدفع اليه الرسالة وقال:

ـ خالاه! اقرأ هذه الرسالة ان كنت تشاء

فقرأها المستر هوكر وهو يخفي غيظه الذي كان يتَّقد في صدرهِ ثم ارجعها قائلاً: «وماذا؟»

ـ لا ارى بداً من تلبية الدعوة

فهزَّ المستر هوكر كتفيه وادار وجهه الى حيث كان متجهاً اولاً فعاد ادورد يقول له:

ـ ألا تستصوب ان ألبي الدعوة؟

ـ قلت لك رأيي في المرة السابقة فهل نسيتَ؟

ـ كلاَّ لم أنسَ. ولكني لا ارى بدًّا من تلبية الدعوة لان الآدابُ تقضي بذلك ولا سيما لاني لم ازر صديقي بعد تلك الحفلة كما تقضي اصول المجاملة

ـ اذا لم ترَ بدًّا من ذلك فافعل ما تشاء

رأى ادورد انه اذا ختم الحديث هنا تلافى القال والقيل والمناقشة

والجدال فقال :

ـ اذاً أبرح غداً باكراً الى شارع كنستون واعود من « مونتمار » المساء

فسكت المستر هوكر . وخرج ادورد من عنده على هذا العزم

مونتمار مزرعة كبيرة للايدي بنتن قلما تبعد عن ضاحية لندن الشرقية الشمالية وفيها حقول وبستان فسيح غضّ وفي وسطهِ قصر صغير تقصده اسرة بنتن في بعض ايام الصيف للنزهة

وما كانت الساعة العاشرة صباحاً حتى اصبح القصر مأهولا باسرة بنتن و بعض المدعوّين من اقاربها واصحابها . ولو جئنا نصف ذلك النيروز وما حصل فيهِ من الالاعيب والاضاحيك وجميع دواعي المسرات لانشغلنا بهِ عن حكايتنا ولذلك نضرب صفحاً عن وصف محاسنه ونقتصر على ذكر المهمّ مما يخص روايتنا ونعني بهِ ما كان بين لويزا وادورد

لا يحتمل المقام ان نصف للقارىء بالتدقيق والتفصيل كيف استقبلت لويزا ادورد وتعاشرا في ذلك النهار وانما نلمع الى ذلك الماعاً ونورد نموذجاً من محاوراتهما المختلفة لكي يعلم القاري اين صارا في تبادل هواهما بعد مقابلة واحدة قصيرة

اقبل ادورد على لويزا في الصباح في قصر كنستون وفؤاده يتشنَّج في صدرهِ تارة ويثب اخرى وشعر أن قدميهِ مَرنَتان تحت بدنهِ فلم يعد يعرف كيف يمشي حتى دنا منها فرأى ملكةً بلا تاج وملاكاً بلا جناحين وثغراً يتدفق ابتساماً وخدين يتورَّدان توجداً . ولما وضعت كفها في كفهِ لتصافحه كانت يداهما كسلكين اتصلا فجرى فيهما مجرى كهربائي سريع انتفض

بهِ قلباهما واختلجت عضلاتهما وكان بين لحظيهما حديث لم يلاحظهُ احدٌ من الحاضرين ولم يفهمه غير فؤاديهما

وكانا في الطريق وفي اكثر فترات النهار يتخاطبان في مواضيع مختلفة وادورد لا تفوته لحظة تأمل بجمال لويزا وهي ينبوع تبسم لا ينضب . وكان اذا شغلت عنه هنيهة بغيرهِ يعود الى نفسهِ ويقول : أحقيق ان مس لويزا بنتن ابنة اللورد بنتن وابنة اللايدي بنتن المتكبرة ـ هذه الفتاة التي استوجهت كل الانظار اليهـا في حفلة كمبردج وطارت شهرة جمالها في كل اندية لندن وتمنى العدد العديد من الشبان النبلاء ان يحصلوا على يدها ـ أحقيق ان هذه الفتاة هي التي اراها الآن تبسم لي وتلاطفني كأنها دوني مقاماً ؟

نعم هي . ولكن ماذا غرَّها بي ؟ لا نسب ولا ثروة . أجمال ؟ لا اراني اجمل من سواي . أعلمٌ وادبٌ ؟ كثيرون من شبان اليوم يفوقونني علماً وادباً . ام ان الملاطفة والتوددُّ خلقة فيها ؟ كلاَّ ـ كلاَّ . لاني لا اراها تتودَّد لغيري من المدعوين وتلاطفهم كما تلاطفني . اراها اليوم تكاد تشغل بي وحدي حتى صرت اخشى ان يلاحظ الامر ابواها وينتقد عليها الباقون

كاد الحب المتقد في صدر ادورد يستخفه الى المجون احياناً ولكن كان في لبّه وفيرٌ من الرزانة والتعقل يُقعِده عن اقل خفَّةٍ وطيشٍ

وفي عصارى النهار نزل القوم الى البستان يتمشون بين الاشجار والزهور وكان ادورد ولويزا يتمشيان معاً فقطفت لويزا وردة وقالت :

ـ كيف انت وعلم النبات يا مستر سميث ؟

ـ يلذ لي كل علم يا سيدتي

ـ اما انا فكان يلذُّ لي تشريح النباتات وتعليل أنسجتها وتغذيتها ونموها ونحو ذلك وكنت اتضجرَّ جداً من درس اصطفافها لانها كثيرة التنوع الى صفوف ورتب وعيال عديدة لاتحصيها ذاكرة

ـ وانا كنت كذلك يا مس بنتن . ولكني كنت انظر الى كل علم من احدى جهاته واضرب صفحاً عن الجهات الاخرى فكانت تلذ لي فلسفة تسلسل النباتات واتمثل بها مبدأ الارتقاء

ـ اتذكر من اي عائلة الوردة

تناول ادورد وردة وجعل يفتلها بين اصبعيه ويتأملها ثم نظر الى لويزا وتبسَّم وقال :

ـ ما الوردة الأَّحواء النبات اغوت النرجس بجمالها البديع ولما وبخها الله احمرَّت اوراق تويجها خجلاً ولم تزل حمراء واما النرجس فقاصَّه الله بالذبول

فضحكت لويزا متوردة الوجنتين وقالت :

ـ أفي النبات شعرٌ ايضاً يا مستر سميث ؟

ـ في كل مادة من الطبيعة شعر يا سيدتي

ـ وكيف تشرّح الوردة وتشرح وظائف اعضائها

ـ تظل الوردة ملفوفة التويج ضمن كمها الاخضر ما دامت طفلة . فمتى بلغت دور الشبيبة انفتح كمها عنها فيظهر جمالها الفتَّان حتى تصبو اليها النفوس فتكشف « بتلاتها » عن فؤادها فتظهر سبلات دقيقة نابتة فوقه هي لهبات الحب . وما دام القلب غير ملتهبٍ حباً يظل الجمال مخبوءًا تحت غلاف الكم . واذا فتحتِ وردة لم تزل مختومة وجدتِ تويجها أبيض .

ذلك لان القلب لم تمسّه جمرة الحب بعد لكي يحمر التويج وينكشف عن القلب

فابتسمت ولويزا ظلُّ الورد يظهر على وجنتيها تارة ويختفي اخرى . وقد استسهلت ان تشرح فؤادها لادورد باصطلاحات تشريح الزهور التي استنبطها فقالت

— اذاً تعتقد ان الحب سبب الجمال لا الجمال سبب الحب

واذ ذاك أشبع خداها حمرةً

— اعتقد بكلا الامرين

فقالت بصوتٍ متهدّجٍ

— كيف ؟

— متى اضطرم القلب بالحب حمل سائر البدن على التجمل فيكون الحب سبب الجمال هنا . ومتى رأى قلبٌ آخر ذلك الجمال اشتعل بالحب كذلك القلب فيكون الجمال سبب الحب هنا . هكذا ترين الجمال والحب يستقويان الواحد بالآخر كحلفين يتفقان على القلب

فسكتت لويزا بعد هذا الكلام لانه لم يبق لها مجالٌ فيهِ اذ اصبحَ جريها في مضمار هذا الحديث شططاً عن جادة الادب ولكنها كانت تود أن تسمع المزيد من ادورد لتستعلن كل افكار قلبهِ فكانت تنظر اليه باسمة ولسان حالها يقول « ثم ماذا ؟ » . اما ادورد فصار لسانه قلقاً في حلقه يتمثر باللفظ والحمرة انتشرت في كل محياه ولكن الفرصة السانحة ورضاء لويزا عن حديثه شجّعاه على الاسترسال فيه فقال :

ـ مسكين هذا القلب يشتهي الحب وهو آفته . يستلذه وهو محنته ، يحوم حوله كالفراشة حول النور فيلتهمه

ـ كذا تعتقد ؟

ـ نعم لاني اعرف من نفسي يا سيدتي . أليْسَ لي قلب ؟

فظلَّت لويزا ساكتةَ

ـ ولعلكِ تودين ان تسألي ما حال قلبي ؟

فبقيت ساكتة لا « نعم » ولا « لا » ولكنها التفتت عنه وفي بدنها قشعريرة خفيفة وفي قلبها خفوق

فاجاب على السؤال الذي افترضه

ـ هو شعلة وجدٍ ان طالت حاله هذه تطاير شعاعاً

فقالت لويزا وقد غصَّت في ما تقول حتى لم يكد ادورد يسمع :

ـ متى صار كذا ؟

ـ على اثر حفلة كمبردج يا لويزا

ولم يستتم ادورد هذه العبارة حتى رأى موجة اختلاج مرت في قامة لويزا كأنَّ صاعقة انقضت عليها واخترقت جسمها فانثنت عنه مسرعة وانضمت الى غيرهِ من المتمشين في ارض البستان . اما ادورد فشعر ان روحه اصبحت في انفهِ وقلبه قد انقطع وسقط من بين جنبيه وقال في نفسهِ « خسرت الحياة . ويلاه » وبقي بين الزهور يوهم انه متلاهٍ بها ولكنه لم يعد يعي ما حوله ولا يبصر ما امامه اذِ اسودَّت الدنيا في عينيهِ . وجعل يؤنِّب نفسه ويلوم ذاته كأنه اتى انكر المنكرات . ولو كان في يده آلة

للهلاك لا تحر في الحال . و بعد هنيهة رأى اللورد روبرت مقبلاً عليه فخطر له ان لويزا اخبرت اخاها بما قاله لها انه قادم اليه لكي يوبخه على ما كان منه معها فصمَّم ادورد ان يخنق نفسه لاول كلمة يسمعها من صديقهِ روبرت بهذا الشأن ولكن روبرت ابتدره من بعيد قائلاً :

ـ لا تؤاخذني يا حبيبي ادورد على قلة انتباهي اليك وانشغالي بغيرك من الاصحاب فانما اغضيت عنك لانك صديق بل اخ لا تعتب كسواك ولاني رأيت لويزا تماشيك . اين هي ؟

فكان قلب ادورد ينتفض عند كل كلمة يقولها روبرت متوقعاً ان يكون هذا الكلام مقدمة تهكم يليها التوبيخ ولكن هدأ روعه قليلاً عند سؤال روبرت « اين هي » فقال :

ـ اني لفي غاية الامتنان لك يا عزيزي روبرت ولحضرة الشقيقة الفاضلة مس بنتن فاني رأيت من لطفكم وكرم اخلاقكم اكثر مما رأى الباقون كلهم . بل اشكر لك ثقتك التامة بصدق محبتي التي لا يمكن معها ان ارى منك تقصيراً باكرامي بل تدعني اشعر أني في بيتي

ثم تقدما وامتزجا مع الآخرين ولكن لويزا كانت بعيدة . وظل ادورد مضطرب الفؤاد ينتظر عاقبة سيئة لحديثه الاخير مع لويزا وقد صوَّر الوهم له ذلك جُرماً عظيماً جدًّا وقطع كل امل من رضاها وصار يتمنى ان ينتهي النهار لكي ينصرف من « مونتمار » لانه كان يرى ذلك البستان قد اصبح جهنماً من غضب لويزا .

و بعد العصارى اجتمع القوم في رحبة من رحبات البستان لتناول الشاي

وكان ادورد يخاف ان ينظر الى لويزا فلم يُجِلْ نظره ليعلم من اي جهة تأتي فما درى الاَّ وهي وراءه تقول لاحدى رفيقاتها « نقعد هنا » ثم قعدتا الى جانبهِ فرمقها فرآها تبسم وتبش كأنه لم يكن شيء مما كان او كأنَّ سحابة خجل لا غضبٍ مرَّت على محياها وانقشعت بذلك النفور القصير . فهدأ روعه تماماً وعاد امله اقوى وامتن . ثم عاد الى محادثتها بمواضيع مختلفة باكثر طلاقة من السابق كأنهما صديقان تعارفا منذ الحداثة . ولم يبقَ عند ادورد شك بان لويزا تحبهُ كما يحبها

وقد اختلس فرصةً موافقة في خلال حديثهِ معها وسألها :

ــ هل يتسنى لي ان اراكِ كثيراً ؟

ــ في الاوبرا مساءَ الغد وهناك اقول لك اين تراني بعد ذلك

ــ هل لي ان تذكري الاماكن التي يمكن ان اراكِ فيها تكراراً حتى اذا لم اكن على ميعاد اهتديت اليك بالالهام او بالبحث ؟

ــ في « هيد بارك » في طريق ن . وفي سباق دربي غالباً . . . . .

انقضى النهار وانصرف ذلك الجمهور حتى اذا دخلوا ضواحي المدينة تفرقوا كلٌّ الى منزله

اما ادورد فذهب الى مرقدهِ محفوفاً بسعادة روحانية لم يكن يتصور من قبل انها توجد في العالم المادي . لويزا بنتن التي تتهافت اليها الوف من القلوب تكاد تهبه قلبها او انها وهبته . تفاهما بلغة الهوى تماماً ولم يبقَ امامهما الاَّ ان يختما الحب بلثمة مشتركة بين شفاههما . ثم ماذا بعد ذلك ؟ أيقدر ان يقول لها يوماً ما « زوجتي » ؟ خطر له هذا السؤال ولكن كما يخطر المستحيل

على فكر اليائس العاقل . ذلك لانه كان يقال ان اللايدي بنتن لا تزوّج ابنتها الاَّ لورداً محافظة على عادة النبلاء السلفاء ولذلك كان يقول ادورد في نفسهِ « احبها وتحبني وحسبي » . اما ماذا بعد ذلك فلايدري . وابى ان ينظر الى ما بعد لئلا يكون في نظره هذا ما يحزنه

وكان كل يوم بعد آخر يلتقي بها في الاوبرا أو في السباق أو في « هيد بارك » او انهُ يلاقيها على ظهر جوادهِ اذ تكون مع اخيها على جواديهما في طريق « مونتمار » وكان روبرت يدعوه الى كل حفلة تعقد في قصر كنستون حافلة كانت او مقتصرة على الاخصاء . وكان اللورد واللايدي بنتن يستلذَّان عشرة ادورد وحديثه جدًّا ويعجبان بعلمه وادبه ويثنيان على سماحة خلقهِ ولهذا كان يسرهما جدًّا انه عشير ابنهما روبرت وعليه كان يختلف كثيراً الى القصر ويشعر انه في بيت اخيهِ او قريبه

اذا اجتمع الحبّ والذكاء في شخص واحدٍ كان ذلك الشخص خلاصة الانسانية نقية من كل شائبة مجردة عن كل كثافة بحيث تظهر صافية . فلا عجب ان يظهر ادورد في قصر كنستن مثال الجمال العقلي ويسطو على كبرياء اللايدي بنتن بحيث لا تجسر ان تخشى على قلب ابنتها منه . كان ادورد عشير لويزا بل عشيقها وهي عشيقته من غير ان تتنبه الظنون لهما . تلك هي فائدة قيادة الحب بيد الذكاء

تسنى لادورد ان يرى لويزا أيَّان شاء تقريباً وقد اجتمع بها اضعاف ما كان يتمناه ويعده مستحيلاً . وقد شرحا سفر هواهما وعلَّقا على هوامشه الحواشي ولم يبقَ ذلك السفر الطويل ناقصاً الاَّ الخاتمة . ولكن كانت تلك

الخاتمة تتراءى لكلٍّ منهما اعزّ من تناول الطفلِ القمر



الفصل التاسع

« وعد بمجهول »

ذلك كان شأن ادورد في هوى لويزا . واما شأنه مع خاله ولا سيما مع أليس فكان على الضد . كانت أليس تلاطفه الى حد التذلل وتتوسّل اليه لاجل كل امرٍ وتستعطف فؤاده بأساليب لطيفة في خلال احاديثها معه . ولكنّ تلك التوسُّلات والاستعطافات كانت تنزل على قلبهِ كالكُحل (السبيرتو) الحاد فتصلّب عضلاته وأوتاره ومصاريعه خلافاً لابتسامات لويزا فانها كانت تنزل في فؤاده كاكسير الحياة

على ان أليس علمت مع الايام ان ادورد مشغول بحب مس بنتن لتعدد زيارته لقصر كنستن ولاجتماعه المتوالي باللورد روبرت صديقه فكانت تتقد غيرة ولكنها كظمت غيرتها وتجلدت وواظبت على محاسنته آملةً ان سعيه الى مصاهرة آل بنتن يخفق فاذا ظلت تحاسنه لا يستصعب العودة اليها بعد الفشل من لويزا

اما المستر هوكر خاله فلم يدَّخر جهداً في ملاطفته والبذل له وتقديم كل ما يلاحظ انه يبتغيه فاقتنى له جواداً ومركبة وكان يوصي كل الخدم ان يلبوا اي امرٍ له وهكذا لم تنقصه حاجة

مع كل ذلك كان ادورد في غالب الاوقات كاسف البال في بيت خاله قليل الضحك والمزاح على غير عادته واذا بشَّ ظهر التكلف في بشاشته

لا يسرّه شيء هناك مهما وفرت دواعي السرور له . نعم لا يُسرّ اذا لم تكن لويزا امامه بحيث يجثو فؤاده امام عرش جمالها وتسكب من روحها ماء الحياة في قلبه

لم تغبَ على خاله حقيقة حالهِ فتأكّد ان عين لويزا بنتن سحرت لبّه وان التعاويذ لم تعد تجدي شيئاً في ذلك السحر

افتكر المستر هوكر طويلاً في كيف يرقي قلب ادورد ليرفع عنه تأثير السحر وجرّب كل الرقى المألوفة فرقاه تارة بجمال أليس وطوراً بتدللها وحيناً بتودُّدِها وآخر بتذللها وآناً بالجاه وآناً بالثروة فلم تنجع فيه رقية من كل هذه الرقى فقال في نفسهِ : « اذاً بقيت رقية واحدة ادّخرتها الى هذا الحين فان لم تنجع فقد خابت كل آمالي وحبطت مساعيَّ في عشرين عاماً وازيد »

وفي ذات صباحٍ استدعى المستر هوكر ابن اختهِ اليهِ وهو في غرفته جالس الى مكتبهِ فجاء ادورد وقعد على كرسي مقابله ينتظر ما يكون من امرهِ

ـ عزيزي ادورد ماذا تعتبر نفسك في هذا البيت ؟

فنظر ادورد الى خالهِ مندهشاً مستهجناً

ـ اعتبر نفسي في بيتي . كذا صحوت من طفوليتي وكذا بقيت حتى هذه الساعة

ـ وكذا تبقى الى الابد اذ ليس لي ابن سواك كما ان لا بنت لي سوى أليس . وماذا تعتبرني بالنسبة اليك ؟

ـ عجيب يا سيدي اذا كنتَ تعدُّني ابنك فماذا اعدُّك غير ابي ؟

ــ هل لاحظت ولو مرة واحدة اني افضِّل أليس عليك بشيء ؟

ــ كلاَّ البتة ولو لم تقل لي انك خالي لما عرفتك الا ابي الحقيقي

ــ هل ضننتُ عليك بشيء في العشرين سنة التي ربيتك وعلمتك فيها كما يتعلم ابناء الشرفاء ؟

ــ كلاَّ . وهل يضن الابُ على ابنه ؟

ــ اتعتقد اني احبك حب الاب لابنه لا حب الخال لابن اخته ؟

ــ لا شك عندي بذلك

ــ اتظن اني اضحي شيئاً من سعادتك لاجل سعادة أليس ؟

ــ ما الذي يدعوك الى هذا التساآل يا سيدي . ألاحظتَ مني شكاً بعواطفك نحوي ؟

ــ كلاَّ وانما آخذ اقوالك هذه مقدمات ابني عليها حديثي الآتي . فلا تجبني الا الصدق بكل حرية ضمير والاَّ فسدت النتيجة التي نسعى اليها . فان كنت لا تشعر بانك في بيتي بمنزلة ابنتي تماماً وان مصلحتك عندي تساوي مصلحتها واني لا اضحي شيئاً من سعادتك لاجلها ولا اغفل مصلحتك لاجل مصلحتها فقل

ــ كلاَّ بل اني اشعر اني ابنك كما ان أليس ابنتك ولا اعرف نفسي غير ذلك

وعند ذاك كان ادورد يقول في نفسه: «ألا يمكن انه يقف في سبيل سعادتي لاجل سعادة ابنتهِ ؟ »

ــ اذاً أعرني سمعك وتدبَّر ما اقول . ارى يا عزيزي ادورد انك

في ثورة غرام

فتدفَّعت عضلات ادورد تحت فعل اختلاج عنيف تدفُّع الامواج تحت فعل الرياح واكمدَّ وجهه حتى لاحظ المستر هوكر اضطراب بدنه وظلماء محياه فاشفق على عواطفه واستدرك قائلاً :

ـ نعم اراك في ثورة غرام ولكني اعذرك لا اعذلك لان الغرام جُعل لمن هو مثلك وهو سنة الله في القلوب البشرية . واذا اقتيد الغرام بقود التعقل كان سعادة حقيقية لذويه

فاستبشر ادورد قليلاً عند هذا الكلام ولكنه بقي يوجس شيئاً من خاتمة العظة

ـ أتعلم يا ادورد ان الغرام سبيل الى الزواج فان لم ينتهِ بهِ كان ويلاً على صاحبه ؟

ـ الحق اقول لك اني لا اعلم ذلك وانما علمت ان الحب ثمرة القلب البشري ومتى نضج القلب اثمر هذه الثمرة لا محالة

ـ نعم الحب حتم على القلب ولا قلب بلا حب حتى قلب الطفل . ولكنك لم تُصب في تشبيه الحب مع القلب . انت تتكلم نظرياً وانا اتكلم اختبارياً . الحب داء في القلب ولا علاج لهذا الداء الا الزواج

ـ لا اراني مقتنعاً بصحة هذه القضية يا سيدي بل اشعر ان الحب هو هو ولا يشفي المحب منه زواج ولا غيره

ـ قد يصعب عليك ان تسلّم بهذه القضية ولكني اقولها لك كقضية مسلَّمة عند الجمهور بحكم الاختبار . وانت معذور الآن لانك لا تزال خياليًّا

في الحب . ولكن هذه الثورة الغرامية التي انت فيها وتظنها دائمة تخمد على اثر الزواج حالاً

ـ هلْ ذلك كذلك ؟

قال ادورد هذه الكلمة واصغى الى خاله لعله ينتهي بنتيجة ترضيه

ـ اذا كنتَ قد آمنتَ بهذه القضية ـ واقول آمنتَ لانك لا تسلّم بلا برهان حسي والبرهان الحسي هو ان تتزوج وعند ذلك تسلّم فعلاً ـ اذا كنت قد آمنت فهاك قضية اخرى : « لا تكون المحبوبة والمخطوبة واحدةً دائماً »

ففتح ادورد فاه مستهجناً هذا القول

ـ يالله : لم اسمع باغرب من هذه القضية

ـ لا تستغرب . تحب فتياتٍ كثيراتٍ ولكنك لا تتزوجهنّ كلهنّ

ـ أَحقيق ان الانسان يحب غير واحدة ؟

يظهر ان ادورد الشاعر الدارس جاهل في الحب فكان يظن ان المرء لا يحب في حياتهِ الاَّ شخصاً واحداً . ولا بدع ان يظن كذلك وهو في اول حب لان كل مبتدىء في الحب يظن حبيبه الحبيب الاول والآخر. على ان خاله برهن له فساد هذا الوهم اذ قال :

ـ نعم يحب كثيراتٍ مع الايام على انه لا يحب غير واحدة في الوقت الواحد . وكثيرون من الشبان يتزوجون غير الفتيات اللواتي احبوهنّ

ـ تعني الخونة في الحب ؟

ـ كلاَّ بل الصادقين الامناء أيضاً

ـ كيف ذلك ؟

ـ ذلك ان التي تحبها إما انها لا توافقك زوجةً او انها تخونك فتغفلها او انها لا تُمنَح لك لسبب اجتماعي كأن تكون اشرف او اغنى منك أو ان تكون اوضع فتستنكف ان تأخذها زوجة او نحو ذلك . واذ تصمم على الزواج تبحث عن فتاة اخرى تلائم حالك وترضي عقلك قبل ان ترضي قلبك . وتوافق مصلحتك لا هواك

ـ كل هذا يتعذر عليَّ فهمه يا سيدي وجل ما اعقله من فلسفة الحب اني اذا احببت احب واحدة فقط كل حياتي واتأكد أنها تحبني واذ ذاك لا اسلم انها تخونني او تتغيَّر عليَّ . وسواء كنت ارفع منها مقاماً او ادنى فلا انا ولا هي نستنكف ان نكون زوجين . وان قامت في سبيل زواجنا موانع بقينا حبيبين امينين الى الابد بلا زواج . هذا ما اعقله واشعر بهِ ولا اقدر ان اتحوَّل عن الاعتقاد بهِ

فسكت المستر هوكر برهةً وهو يتأمل كيف يقنع ادورد بفساد اعتقادهِ و بعد هنيهة رفع رأسه ونظر اليه قائلاً :

ـ اتظن اني اغشك او اكذب عليك يا ادورد او اني اقصد اغراءك ؟

ـ لا

ـ اتظنني غرًّا قليل الاختبار ! اترى اني مكابر في مناقشاتي

ـ كلاَّ البتة

ـ فانا اكلمك عن اختبار تام واقول لك حقيقة راهنة يعتقد بها كل الجمهور ولسوف تعلمها بنفسك وهي ان الزوجة قد تكون غير الحبيبة . ومتى صارت زوجةً صارت هي الحبيبة الوحيدة اذا كان الزوج ذا مبادئ قويمة

ـ عجيب . كيف يحب المرء من يشاء ؟ هل الحب تحت امر الارادة ؟

ـ منشأ الحب حب النفس فحيث يكون للنفس مصلحة يتجه القلب بقوة الحب . وفي الزوجة الفاضلة المستوفية كل صفات الزوجية اعظم مصلحة للنفس . فاذا حكَّمت عقلك فقال لك ان هذه الفتاة افضل لك كزوجة من تلك انصرف حبك عن تلك الى هذه . واما اذا استسلمتَ لهواك عميتَ عن مصلحة نفسك طبعاً

وكان سكوتٌ نحو دقيقتين وكل منهما يتأمل ـ المستر هوكر يتأمل في ماذا يكون تأثير كلامهِ على ادورد ايرعوي وينقاد ام انه يصرُّ على هواه . وادورد يتأمل في ماذا تكون خاتمة هذه العظة وفي كيف يكفُّ خاله عن نصحه . ثم استعاد المستر هوكر الحديث قائلاً :

ـ اظن ان قلبك في قصر كنستون يا ادورد ؟

ـ نعم هناك مودع يا سيدي

فعبرت لهذا الجواب رجةَّ تغيُّظٍ في صدر المستر هوكر ولكنه اخفاها عن ادورد وقال :

ـ ونعم المستودع . لا تظن انه يسيئني ان تودعه مس بنتن يا ادورد فقد برهنت بايداعه هناك على كبر نفسك وانك نشأة علاء ومجد وما ذهبت عنايتي فيك سدىً . ولكن اتعلم ان حبك لابنة اللورد بنتن او بالاحرى اللايدي بنتن عقيم ويستحيل ان يثمر وأن خاتمتهُ الهوان لك ؟

ـ اما انه عقيم فاعلم واما ان عاقبته الهوان فلا اظن

ـ بماذا تظنُّ هذا الحب ينتهي ؟

ـ لا ادري

ـ انا ادري . اذا لم ينتهِ بزواج فلا بد ان ينتهي بخذلان وبما انه لا ينتظر أن اللايدي بنتن تنزل عن كبريائها وترضى ان تزوّج ابنتها لغير لورد مهما كان غنياً فلا بد ان تشعر يوماً من الايام بصلة الهوى التي بينك وبين ابنتها فتخذلك بل تخزيك بل تطردك من منزلها طرداً

عند ذلك ابتدأ ادورد يشعر باشمئزاز من خاله ويحس بمثل الكره لهُ . واستتم هذا كلامه قائلاً :

ـ وإلا فماذا تظن نهاية حبكما تكون ؟

ـ لا اظنهُ ينتهي في هذا العالم ولا في الآتي

فضحك المستر هوكر وهزَّ رأسهُ قائلاً :

ـ وهل تقنع بهذا الحب العقيم ؟

ـ قانع ومسرور

ـ اتظنك تثبت عليه الى نهاية الحياة ؟

ـ من غير شك

فضحك المستر هوكر جداً وقال :

ـ اعذرك يا بنيَّ فان علم المدارس غير علم الزمان . أصغِ اليَّ يا ادورد فاني احبك جداً . احبك حباً ابوياً . إعصَ هواك في هذه الساعة وعد الى عقلك وحده فتجد اني ابتغي لك السعادة الدائمة

واما ادورد فكان يستقبل هذا الكلام كما يستقبل الصخر الصلد نقط المطر . تقع عليهِ وتتزحلق عنه . واما خاله فاسترسل في كلامه :

ـ دعني اكلمك بحرية ضميري ما دمتَ مقتنعاً انك وأليس متساويان عندي في كل اعتبار . اعلم اني ربيتك انت وابنتي معاً واعتنيت بكما عناية واحدة وجمعتُ ثروة كبيرة على قصد ان تتمتعا بها معاً وهيَّأْت لكما مجداً لم تحلما بهِ ولا خطر على بال احدٍ من الناس . اما المال فلابنتي بحكم الشريعة لانها هي الوارثة الوحيدة لي ولكني اقسمه بينكما مناصفة على اي حالٍ . واما المجد ـ انتبه لهذا المجد ـ الذي اعددته لكما فهو لكما معاً متحدين وهو عدم اذا كنتما منفصلين

ثم جذب المستر هوكر «دُرْجَ» المكتب اليه وتناول منه «حقيبة زرقاء» صغيرة وقال :

ـ لا تظن هذا المجد الذي اكلمك عنه شيئاً موهوماً البتة بل هو شيءٌ حقيقيٌّ مخبوءٌ لكما في هذه الحقيبة

فنظر ادورد الى الحقيبة وهي في يد خاله بعين الاستغراب وقال في نفسهِ «مهما احتوت هذه الحقيبة فلا تغرُّني» ولم ينبس ببنت شفة ولا اهتم ان يعلم ما فيها لانه يضحي كل شيءٍ في سبيل حبه للويزا . فلو كان في تلك الحقيبة تاج الاسكندر لرفسها برجله وقال «حب لويزا المجد» . ولهذا ما اكترث بها . ثم استمر خاله في حديثه :

ـ ولعلك تودُّ ان تعلم ما في هذه الحقيبة فلا تطمع بذلك الآن لأن مفتاح سرها قرانكما لا سواه

قال المستر هوكر هذا الكلام وقد تجرد من لهجة الانعطاف فاجابه ادورد على الفور

ـ دعها اذاً مقفلةً

فنظر المستر هوكر الى ادورد بعين الاستغراب وفي نظرتهِ ظلٌ من السخط ضعيف جداً

ـ لا تزدرِها يا ادورد فان المجد المخبوء لك ولأليس فيها لا يقل قط عن مجد اللايدي بنتن

فقال ادورد في نفسه . « ومهما يكن هذا المجد فما هو الاَّ قتام لدى سنى لويزا » وبقي صامتاً

وبعد سكوت هنيهةٍ قال المستر هوكر :

ـ انت مخيَّر الآن بين امرين يا ادورد إما هوانٌ دائم بحب ابنة اللورد بنتن بل خذلان قريب على ما اظن او مجد سني جداً بزواجك من أليس

ـ أُوْثر الهوان

فنظر فيه المستر هوكر شزراً وكاد ينتهره ولكنه امتلك خلقه

ـ لا تظنني اعرض ابنتي عليك لاني لا اجد لها كفؤاً وإنما اعرض عليك مجداً لا يكون الا بقرانك بها

فكاد ادورد يسألهُ « ما هذا المجد » ولكنه لم يكن يرضى بشيء حتى ولا بالملكوت الارضي بدل حب أليس . فالجم لسانه عن هذا السؤال لكي يقصر الحديث وينتهي من هذه العظة العقيمة

ـ اعلم جيداً ياسيدي ان أليس تجد كثيرين اكفأ مني لها يتمنون يدها

ـ أتطمع بزوجة افضل منها ؟

ـ كلا ولا بمثلها

ـ اذاً لماذا لا تقبلها زوجتك وتقبل معها مجداً عظيماً ؟

ـ هذا فوق طوقي يا سيدي

ـ أليس تحبك جداً يا ادورد

ـ وانا احبها ولكن كاختي . كذا ربينا معاً

وبعد سكوت قصير قال المستر هوكر:

ـ ألا تتأمل المسألة جيداً فمسالك ترعوي وتؤثر نصحي ؟

ـ تأملتها كثيراً قبل الآن وكنت كلما تأملت اصل الى نتيجة واحدة وهي ان أليس اختي لا اقدر ان اكون زوجها

ـ بل تأمل في الايام المقبلة فتجد اني اقصد سعادتك يا ادورد اذكر هذه الحقيبة الزرقاء واعتقد اني صادق بقولي فلا اغريك ولا اخدعك

ـ لا اشك بصدق قولك ولكني لا آمل ان اجبل فؤادي جبلة ثانية

ـ اذاً تصرُّ على هواك ؟

فتنهَّد ادورد وكاد الدمع يطفر من مقلتيهِ

ـ نعم لان ما تبتغيهِ فوق قدرتي فاعذرني

ـ اذاً ضاعت كل آمالي فيك بل ذهبت كل عنايتي سدى . ولو لم يكن في ما بذلته عليك نفع لك لندمت على ما فعلت لك على اني لا ازال آمل ان تثوب الى رشدك متى خذلوك

ثم نهض المستر هوكر وهو لا يملك غضبه وقد طلعت على جبهته غمامة من السخط قاتمة ثم ذهب الى معمله وترك ادورد والحزن يقطّع في

فؤاده وهو يأكل اصابعه لوقوعه في ازمة شديدة وصار يفكر في مخرج منها فلم يجد واصبح منذ ذلك الحين يوجس خيفة من خاله

وكان كل هنيهة ينظر الى الساعة لانه كان ينتظر العصر للقائهِ بلويزا على ظهر جوادها مع اخيها في الطريق الى موتمار

الفصل التاسع

« عهد بلا يد »

في الساعة الرابعة بعد الظهر كان ادورد في الطريق الى مونتمار يلوي عنان جواده فيسير بهِ طرداً وعكساً وهو يترقب قدوم صديقه روبرت بنتن وشقيقته . وما اقبلا عليهِ حتى نفد كل صبره وكاد يهيم في البرّية . ولما اوغلوا بين الحقول ترجلوا برهة وتقدم روبرت لكي يقطف بعض الزهور فاغتنم ادورد تلك الفرصة وأسرَّ الى ولويزا الحديث الآتي :

ـ اتحبينني يا لويزا ؟

وكان القلق مقروءًا في عيني ادورد فامتقع لون لويزا ولم تتمالك ان تبتسم وتجيب مندهشة

ـ من يسأل هذا السؤال يا ادورد ؟

ـ اعذريني . لي معك حديث صغير مهم والفرصة قصيرة

ـ ماذا ؟

ـ ما غاية حبنا يا لويزا ؟

ـ لا ادري . بالحق لا ادري

ـ وانا لم اكن لادري . ولكن قيل لي ان الهوى اذا لم ينتهِ بالزواج انتهى بالهوان ـ فاقشعرَّ بدن لويزا وانعقد لسانها

ـ اترضين بي زوجاً أميناً يا لويزا ؟

فقالت بصوت خافت :

ـ آه ! لو يمكن ؟

ـ اذا رضيتِ فلا شيءَ يستحيل

ـ لا يستحيل يا ادورد ولكن . . . .

ـ ماذا ؟

ـ اترضى ذلكَ بعارٍ

ـ معاذ الله ! اين العار فيه ؟

ـ لا اكون زوجتك الاَّ اذا انكر آل بنتن لويزا او اذا زعموا انها ماتت

ـ الا تنصحين لي ان اطلب يدكِ من ابويك لعل القدر يكتم لنا املاً لم نكن ننتظره

ـ كلاَّ . انا اعلم انهُ اسهل على امي ان تقول ان ابنتها ماتت من ان يقال انها زوجة رئيس الجمهورية الاميركية او زوجة كارنجي او ركفلر اذا لم يكن لورداً

ـ وأبوكِ ؟

ـ أمي فقط أمي

ـ الا يقدر ابوكِ واخوكِ ان يقنعاها اذا أصررتِ أنتِ ؟

ـ الله وحده يقدر

ـ اذاً ما العمل ؟

ـ لا ادري

ـ اما خطر لكِ هذا الامر ؟

ـ كل يوم

ـ فماذا ارتأيتِ ؟

ـ لم اجد حلاًّ لهذه العقدة

ـ وماذا نفعل ؟

ـ لا نفعل شيئاً

ـ أنبقى كما نحن ؟

ـ أما انا فأبقى الى الابد

ـ أترضين حقيقةً بالحالة الحاضرة يا لويزا اي أن نبقي حبيبين امينين كل الحياة ؟

ـ ماذا استطيع غير ذلك ؟

ـ حسبي ذلك يا لويزا اذا كان يرضيكِ

ـ ذلك أفضل من عدمهِ

ـ ماذا تفعلين اذا طلب يدكِ لوردٌ ؟

ـ اذا كان لأمي ان تمنع يدي عن غير لوردٍ فليس لها ان تهبها بالرغم مني لملكٍ

ـ كيف اقدر أن اكون لكِ كما يجب ان اكون ؟

ـ كن كما أنت

ـ أأستحق ان اكون محبك كما أنا ؟

ـ اذا كنتُ اغبط نفسي على كونك حبيبي حتى ولو كنت ملكةً فهي نعمة ان تكون محبي وأنا لويزا بنتن

ـ أنتِ مغبونةٌ يا لويزا . . .

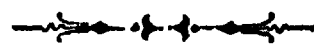
ـ صهْ . أتقسم أن تثبتَ في محبتي ؟

ـ بل في عبادتك

ـ اذاً لا تعـدَّ أياماً ولا تعتبر ان في الوجود زماناً يجيء ويمضي بل اعتقد ان الابدية ابتدأت منذ حفلة كمبردج . ولويزا التي تلاقيها في عالم الارواح هي نفس لويزا لقيتها في جامعة كمبردج

فتح ادورد فاه ليتكلم فلم يتكلم . نظر في عيني لويزا ونظرت في عينيهِ فكانت نظراتهما حديث طويل يملأ اسفاراً . من يقدر ان يعبّر عما تكلمته عيونهما ؟ ومن يشك ان الروحين قد اطلتـا من نوافذ العيون في ذلك الموقف ؟ ومن لا يعتقد ان معاني الارواح اسمى جدًّا من معاني العقول ؟ تلك هي المرة الوحيدة التي جرى فيها حديث اهل السماء على الارض من عهد ابينا آدم الى اليوم

عن غير روية تناول ادورد يد لويزا وهي وضعتها في كفهِ فرفعها الى شفتيهِ فشعرت لويزا كأن نسمة روح قد نَسمَت عليها وجرت في كل بدنها . وشعر ادورد ان نفخة سموية ملأَت رئتيهِ . لم يذكر ادورد ولا لويزا ان عضلات ساعديهما تحركت عند هذا العمل فماذا حركهما اذاً ؟



*

الفصل العاشر

« امل النفس الكبيرة »

لم ينم ادورد في تلك الليـلة . وكيف ينام وعلى صدرهِ همّان ؛ الهم الاول الخصام الذي نشأ بينهُ و بين خاله . والهم الثاني تقصيره عن ادراك المقام الذي يستحق فيهِ يد لويزا

شعرَ منذ ذلك الحين أنه في بيت خاله وان خاله غير ابيه . ورأى ان ثروة خالهِ لأليس فلا يمد يداً لاقل نصيبٍ منها البتة وان كان خاله قد وعد ان يمنحه نصفها . بل شعر انه اصبح ضيفاً عند خاله ما دام يرفض نصحه ويخيّب آماله . بل صار يرى نفسه ثقيلاً هناك . بل صار يرى ان فضل خالهِ عليه أثقل من رضوى على صدرهِ . فصارت نفسه تحدّثهُ ان ينفصل عنهُ ويعيش لنفسه . ماذا يشتغل ؛ ليس في يده مال ولا تعلم صناعةً . لم يخطر على بالهِ من قبل ان يعمل عملاً سوى ان يحل محل خاله في ادارة معملهِ ومراقبة املاكهِ تدريجاً . فهل يفعل ذلك ؛ أجاب نفسه : « لا . ان كنتُ أؤثر الانفصال عن خالي فيجب ان أستقلَّ بكل شيءٍ وبالاحرى في العمل . ان جئتُ اشتغل في معمله بقيت في منزله وتحت فضلهِ »

ردّد في فكره مواهبه ومعارفه ليعلم ماهية اهلتيه فلم يجد الاّ الشعر من المواهب والقلم من المهن . فخطر له ان يشتغل في الصحافة . في تلك الليلة كان هذا الفكر حبة خردل وفي تلك الليلة نفسها اصبح شجرة . رأى

ان مجال الصحافة رحيباً امامه فقدَّر لنفسه ارتقاءً سريعاً فيها ثم طمع بعد ذلك الارتقاء أن ينتقل من الصحافة الى السياسة وقدَّر لنفسه ارتقاءً باهراً في هذه ايضاً ثم طمع ان يتربع في دست الوزارة وينال لقب لورد ويستمنح يد لويزا . تنهد ادورد عند هذه النتيجة وقال حتى كاد يُسمع من خارج غرفته : « آه لو كان لي تاج انكلترا لوضعته بين يدي اللايدي بنتن لتقدم لي فيه لويزا »

عند ذلك انتبه انه يبني قصوراً في الهواء فقال في نفسهِ دعني من الامانيّ الموهومة فلأفتكر بالآمال المفعولة . ماذا يضرُّ أن أطلب يد لويزا من والديها ! فقد لا يستحيل أن ترضى اللايدي بنتن اذا رأت ان لويزا لا ترضى سواي بعلا . وروبرت صديقي يرضى من غير بد واللورد بنتن يرضى على الارجح لاني فهمت من فحوى احاديثه العديدة ان قيمة الرجل عنده بجوهره الشخصي لا بأحواله الخارجية . ولاحظت انهُ يودني جدًّا ويضعني في مكانة سامية بل اللايدي بنتن نفسها تعتبرني كذلك . الا يحتمل ان جبن لويزا وضعف قلبها وخوفها وحياءها كل هذه الامور توهمها ان الامر مستحيل ؟ او لا يمكن ان هيبة أمها الجليلة توهمها ذلك؟ كم من كبراء العامة الذين صاهروا الشرفاء في هذا العصر

ثم عاد فافتكر في نفسه ان ذلك لا يكون بلا رضى خالهِ ووراثة نصف ماله فتنهد وفكَّر طويلاً وقال . « لا بأس . خالي هو ابي الحقيقي وهو حنون عليَّ جدًّا ويحبني فاذا نلت يد لويزا يُسرُّ بالامشاحة كما لو طلب لورد يد أليس ابنته » . وعند ذلك خطر له انه اذا صار صهراً لآل بنتن فلا يستحيل

عليه ان يجد خاطباً لورداً لأليس فسُرّ لحل العقدة الوهمي على هذا الاسلوب وكثيراً ما يصوّر الغرور الاوهام حقائق . وظل هذا الرأي ينمو في ضميره والآمال تقوّيهِ حتى الصباح فصمم ان يكتب للايدي واللورد بنتن بهذا الشأن

جلس ادورد الى مكتبه وجعل يكتب ثم يشطب حتى اذا امتلأت الصحيفة كلاماً مشطوباً جمعها في كفهِ وعصرها ورماها في سلة الاوراق المنفية . وعلى هذا النحو رمى نحو ثماني صحائف ولمّا يتوفّق الى صيغة طلب موافقة . خانه القلم اذ ذاك واغفلته الهة الشعر وغاب من ذهنه منطقه بل ضاع كل عامه فلم يعرف ماذا يكتب . اخيراً قال « المقام ليس مقام فلسفة يكفي ان اوضح مطلبي بأبسط عبارة » فكتب هكذا :

سيديَّ اللايدي واللورد بنتن الافخمين

درستموني في كل مدة تعارفنا وعرفتم حقيقتي جيداً وقد ظهر من مجاملتكم لي ورضائكم عن داتي عليكم اني نات استحسانكم وذلك جرأني على أن اسألكم أيمكنني ان أرجو منكم يد مس لويزا ابنتكم ؟ . أتشرف بأن اخبركم ان ثروة خالي المستر جوزف هوكر الذي كان ولن يزال اباً لي تبلغ نحو مليون جنيه وقد خصَّص لي نصفها والنصف الآخر لابنته الوحيدة

واقبلوا فائق احترامي ادورد سميث

ثم طوى الرسالة وغلّفها ونزل بنفسه ورماها في صندوق البريد ولم يعد . دخل المستر هوكر الى غرفته فرأى المكتب مختلط المواد فعلم ان ادورد كان منشغلاً كما توقع لانه لاحظ قلقه في اليوم الفائت . التفت الى

سلة الاوراق المنفية فرأى ورقاً كثيراً مرمياً فتناول الاوراق واحدة واحدة وعلم ما كان ادورد يحاول ان يكتبه

ولما كان المساء قال المستر هوكر لادورد وهما وأليس الى المائدة :
« اظنك تتوقع خيراً غداً ان شاء الله يا عزيزي »

فارتعش بدن ادورد واكمدّت طلعته قليلاً لانه ظن ان خاله عرف بكل ما كان وفكر في كيف عرف فلم يفطن الى الاوراق التي رماها في السلة فاكتفى بقوله « من يعلم » ولم يزد كأنه كان يابى الخوض في الحديث . اما أليس فلم تعلم معنى ما تبودل من الكلم القليلة بين ابيها وادورد ولا المناقشة التي جرت بينهما في اليوم السابق



الفصل الحادي عشر

« عزم النفس الشماء »

وفي صباح اليوم التالي ورد الى أدور الرسالة الآتية :

مستر ادورد سميث

انتظرك غداً الساعة الحادية عشرة في قصر مونتمار واذا لم ترني في باب الحديقة وحدي فابتعد . لا تدع اخي روبرت يراك او يعرف بوجودك هناك . أبد هذه الرسالة من الوجود والا كانت الاولى والاخيرة بيني وبينك

لويزا

قرأها ادورد اولاً وثانياً وثالثاً فلم يفهم منها شيئاً غير موعد اللقاء فحار في أمره ولكنه رجح اليأس على الامل فامتطى جواده فوصل الى قصر

مونتمار الساعة العاشرة فدنا من باب الحديقة فوجده مقفلاً فعاد الى وراء الآكام وصار كل هنيهة يشرف على الباب فيجده مقفلاً وما دنت الساعة الحادية عشرة حتى كان قد أطلّ عشرين مرةً وفي المرة الاخيرة وجد لويزا واقفة في باب الحديقة فترجّل ودنا منها فجنّ اذ رآها وقد تقرّح جفناها من البكاء فامتثل امامها وفؤاده ينتفض جزعاً وسألها من غير ان يحييها

ـ ماذا جرى يا لويزا ؟

ـ نتيجة ما عملتَ امس . اما نصحتك ألاّ تفاوض والدي بشأني . . . .

ـ ماذا جرى ؟

ـ قرأ ابي رسالتك ثم دفعها الى امي فامعنت النظر فيها قليلاً . وكنت ارى ضبابه من الغيظ تتكاثف على محياها . ثم التفتت بروبرت وقالت « لا يأتِ ادورد سميث الى هنا بعد ولا تجتمع به في مكان » فسألها اخي عن السبب فقالت « كذا اريد » ومن ذا يرد ارادتها

ـ وماذا قال ابوكِ ؟

ـ لم يفه ببنت شفة ولكن كانت ملامحه تدل على موافقتهِ لامي

ـ هل قرأتِ رسالتي ؟

ـ نعم قرأتها انا وروبرت

ـ وماذا قال روبرت ؟

ـ لم يقل شيئاً ولكنه لا يسعه الا مطاوعة امي

ـ اذاً اصبح روبرت خصمي

ـ كذا في الظاهر على ما اظن

ـ أي شيء في الرسالة أغضب أمك ؟

ـ ذلك ما لم استطع ان افهمه . فقد كان يمكنها ان ترفض الالتماس من غير أن تغضب وتسخط

ثم تأمل ادورد برهةً وقال بفكره «ما هي الاّ وشاية خالي . لا يستحيل انه لما رآني مصرًّا على مخالفته ومطاوعة هواي اوعز الى اللايدى بنتن بأسلوب لا اعلمه ان بيني و بين لويزا صلة حبٍّ فنفَّرها مني حتى اذا انتهت رسالتي اليها حمي غضبها . ألا يحتمل ان يكون قد فعل ذلك ؟ نعم نعم هذا هو الارجح فاني ارى هذا الرجل لا يغفل عن اي وسيلة لرد سبيلي الى ابنتهِ فما العمل ؟ » بعد هذا التأمل قال :

ـ لويزا ؟

ـ ماذا ؟

ـ بنيتُ في الليل الاسبق قصوراً في الهواء ولكني سأبنيها على الصخر ان شاء الله

ـ لم افهم

ـ سيستحق ادورد سميث يدك ان شاء الله

ـ لم افهم بعد

ـ ستفهمين . ولماذا كنتِ تبكين ؟

ـ لاني سأحرم رؤيتك

ـ ستحرمينها الى حين وكل آتٍ قريب . لا تفوتني الفرص التي اقدر ان اجتمع بك فيها . ولا اظننا يتعذر علينا ان نجتمع كما اجتمعنا الآن

ـ ولكن هذا الاجتماع لا يليق بابنة اللورد بنتن يا ادورد . . . .

فقاطعها قائلاً :

ـ صدقتِ ولا يليق بحبيبة ادورد سميث . فصبراً يا لويزا

ثم استأنفت قائلةً : ـ وقد أتيت مع روبرت اليوم ومنذ هنيهة حملته ان يذهب الى الصيد لكي يخلو لي المقام وألتقيك في الموعد المعين ولولم تقضِ الضرورة بهذا الاجتماع لما طلبتك . ماذا جرى برسالتي لك ؟

ـ ها هي

فتناولتها من يده ومزقتها حتى صارت هباءً ونثرتها

ـ لا بد ان تدعو الضرورة ان نجتمع يا لويزا لكي نتفاوض بشأننا فكيف ارسل اليكِ خبراً ؟

فكّرت لويزا هنيهةً ثم قالت

ـ اقصد الى الاوبرا او الى حيث يمكن ان اراك فاذا رأيتُ في صدرك وردة صفراء عرفت ان امراً يقضي باجتماعنا فاكتب اليك عن الميعاد والمكان الممكنين للقائنا

ـ ولكن قد تغير عنواني

ـ ما هو الآن ؟

ـ لا ادري

ـ كيف لا تدري ؟

ـ لاني صممت الآن ألاّ اعود الى بيت خالي بعد

ـ لماذا ؟

ـ لاني اود أن اعيش مستقلاً معتمداً على نفسي

ـ ماذا تفعل ؟

ـ لا ادري

ـ اين تسكن ؟

ـ لا ادري . اول رسالة ترسلينها لي اتناولها من دار البريد نفسها ومتى اجتمعنا ثانية تعلمين عنواني

تأملت لويزا برهة ثم قالت : لماذا تنفصل عن خالك يا ادورد ؟

ـ لكيلا اكون اسيره على الدوام

ـ بماذا يأسرك ؟

ـ ما دمتُ عنده ينصح لي ان آخذ ابنته محفوفة بمال ومجد اما المال فاعلم انه وفير واما المجد الموعود به فلا اعلمه

فهبط قلب لويزا عند هذا القول ولكن تجلدت قائلةً : ـ أهذا هو الاسر ؟

ـ بل هو الموت

ـ بماذا تعاب ابنة خالك ؟

ـ تكاد تكون العذراء مريم

ـ عجيب ! كمال ومجد ثم موت يا ادورد . لماذا تأبى نصح خالك ؟

فطفر الدمع من عينيه وقال : اذاً لا تحبينني يا لويزا

ـ ويلاه ! كيف انا هنا ولماذا ؟

ـ اذاً كيف تطيقين ان اصغي إلى نصح خالي ؟

ـ بربك لا اطيق

ـ اذاً تمتحنين حبي ؟

ـ بربك اغفر لي

ثم سكتنا هنيهة ولويزا اقتضبت ذلك السكوت

ـ ارى اننا نؤلف رواية حقيقية يا ادورد او اننا نمثل دوراً

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أرى أن المستقبل كثير الحوادث لنا . وربما كان بعضها محزناً

ـ أتظنين ان الحوادث تؤثر على حبنا

ـ كلاّ وانما اخاف عليك من استقلالك

ـ اذا كنتِ تخافين عليّ فما انا المستحق حبك يا لويزا

ـ أعندك مال تشتغل به

ـ ولا مال لاعيش يوماً واحداً

ـ ويلاه ! ماذا تفعل ؟ ارسل لك مبلغاً في اول الامر

ـ اردّه ولا تعودين ترين وجهي

ـ اذاً على مَ تعتمد ؟

ـ على نفسي الكبيرة وعقلي السليم

فتمتمت قائلةً . لا يجديان شيئاً في اول الامر . مهما كان المصباح وفير الزيت لا يشتعل الاّ من لهيب الثقاب أولاً

ـ اطمئني عليّ يا لويزا فاذا لم اجعل نفسي رجلك الكفء فلا استحق محبتك

الفصل الثاني عشر

« المذلة بقدر الشمم »

في صباح اليوم التالي نهض المستر هوكر من سريره وهو مضطرب البال على ادورد لانهُ لم يعد الى البيت منذ صباح اليوم السابق . ولما فحص البريد وجد بين الرسائل رسالة منه هذا نصها :

سيدي الخال المستر هوكر

مهما تغيَّر عليَّ الزمان اظل اسير فضلك . لو ملكت العالم كله وقدمته اليك بقيتُ مديوناً لك . صرت الآن رجلاً مستوفياً المعرفة اللازمة للعمل بفضل عنايتك فآثرت ان استقل بمعيشتي واعتمد على نفسي فائذن لي بذلك تفضل انت وعزيزتي أليس بقبول فائق احترامي

ادورد سميث

فقرأها المستر هوكر مرتين وثلاثاً والدمع يكاد يذرف من مقلتيه ثم دفعها لأليس فما اتمتها حتى اسرعت الى غرفتها وجعلت تبكي بكاءً مرًّا وهي لا تدري من تلوم لانها لا تعلم السبب الحقيقي لهجران ادورد . ثم راجع المستر هوكر الرسالة فلم يجد فيها عنواناً فحار في كيف يهتدي الى مقرّه فانتظر ان يستعلم عنه من اصحابه لعلهم يعرفون محل اقامته

ثم جعل المستر هوكر يفكّر في انفصال ادورد عنه فلم يجد سبباً لهُ سوى إلحاحهِ عليه بردّ قلبهِ عن حب محبوبته الى حب أليس ولكن لم يجد هذا السبب كبيراً الى حد ان يحمله على الانفصال والاستقلال

والظاهر ان المستر هوكر نسي مضايقته له بهـذا الالحاح في المرَّة الاخيرة حتى كاد يكون بصيغة التهديد

قال في نفسه : « إنْ هي الاَّ ثورة طيش او زوبعة نزق هاجها عنفوان الشباب ولا تهمدها الاَّ مذلة الوحدة . ادعه يستقل ويرى قيمة نفسه ويحقق غروره . ماذا يفعل لا مال في يده ولا يعرف صناعة فكيف يسترزق ليعيش عيشة الرخاء التي تعوَّدها في هذا البيت . لا بد ان يشعر بعجزه ويعود من نفسه صاغراً واذ ذاك يسهل عليَّ قياده . ولكن أأدعه للاقدار ؟ ويلاه ! قد يدفعه اليأس الى ما لا تحمد مغبته . كلاَّ لا ادعه بل امده بقليل من المال حتى متى انفقه وعضه ناب الفاقة يندم فيعود لين الجانب »

اما ادورد فكان قد عاد توًّا من موتمار الى منزل خاله حيث سلّم الجواد لأحد الخدم وذهب من هناك الى ادارة جريدة « الدايلي ميل » وطلب ان يقابل المدير فقيل له انه محفوف بالشغل فليقل ماذا يريد منه . فدفع للخادم قصيدته « النرجسة الذابلة » مع بطاقة وقد كتب عليهـا : « اعرض القصيدة للبيع وارجو وظيفة في احدى دوائر التحرير » . وبعد برهة عاد الخادم ببطاقة اخرى وقد كتب المدير عليها « اما القصيدة فتقبلها الجريدة بعشرة جنيهات واما من حيث الوظيفة فبكل اسف لا حاجة لمحرر او لمساعد محرر الآن »

رضي ادورد بالعشرة جنيهات ينفق منها على نفسه ريثما يجد خدمة وقبضها في الحال ومضى الى فندق س . في شارع ل نمرة ٣٣٣ حيث استأجر غرفة بجنيهين ونصف في الشهر دفعها سلفاً ونام تلك الليلة هناك

ولكن لم تغفل له عين لانه كان ليلتئذ ركام افكار وبحر آمال

قرّر ان يرضى بأي وظيفة ولو صغيرة بحيث لا تقل ماهيتها عن عشرة جنيهات في الشهر وان يستعيض عن المركبة بالترامواي والسكة الحديدية وعن البيرا بالماء وعن الاطايب بالطعام البسيط المغذي وعن المقصورة (اللوج) في الاوبرا ونحوها من الملاهي بالكرسي مرة في الشهر بدل ٥ — ١٠ مرات . وهكذا نظم ادورد لنفسه نسق معيشة جديدة بحيث لا ينفق في الشهر اكثر من عشرة جنيهات

زار في اليوم التالي اكثر ادارات الجرائد في لندن يلتمس وظيفة فلم يجد وفي اليوم الثالث جعل يلتمس وظيفة في بعض الشركات المالية فلم يجد حتى ضاق ذرعه وكاد يستولي عليه اليأس . بقي نحو اسبوعٍ يبحث عن مسترزقٍ فلم يَهتْدِ

أما في لندن المدينة العظيمة وظيفة لادورد ؟ أم ان ادورد عديم الاهلية ؟ لا هذا ولا ذاك بل ان ادورد أشمُّ النفس لا يلتمس وظيفة بتواضع وتذلّل ومداهنة وتزلُّفٍ في حين ان الناس اليوم لا يقضون حاجة لطالب الاَّ اذا استوطأوا نفسه تحت اقدام كبريائهم وعجرفتهم . ثم ان الانسان مهما كان ذا اهلية فلا تعتبر اهليته شيئاً اذا لم يكن محفوفاً بالتوصيات لان الناس لا يعتبرون المرء لاجل شخصيته ولو كان نبيَّ زمانه وانما يعتبرونه لاجل البِئة التي هو فيها ولاجل من يشد ازره ولو كان اخسَّ من كلب واجهل من همجيٍّ . وادورد استنكف جدًّا ان يستوسط احداً من اصحابه أو اصحاب خاله أو ان يأخذ كتب توصية منهم . وزد على ذلك انه لم

يشتغل بعد لكي يعلَم شأنه في دار العمل ويكون لهُ من آثار اعماله برهان على اهليته

العشرة جنيهات التي اخذها ثمن قصيدته لم يبقَ منها في آخر الاسبوع سوى شلينين لانه دفع منها اجرة الغرفة سلفاً جنيهين ونصفاً واشترى بدلة و بعض الملابس الداخلية بأربع جنيهات لانه لم يأخذ من بيت خاله شيئاً سوى البدلة التي كان يلبسها . وكان يضطر بعض الاحيان ان يركب المركبات وهو يجول من مكان الى آخر يبحث عن وظيفة فلذلك لم يبقَ معه في اليوم السابع سوى شلينين فقط فاذا جال في المدينة انفقهما اجرة انتقال من مكان الى آخر و بقي صائماً . وان انفقهما على الطعام لم يستطع أن يبتعد عن غرفته لانه مهما تجلد واحتمل فلا يقدر ان يمشي ساعاتٍ على قدميه . اذاً إما احتباس أو صيام وفي اليوم التالي الامران معاً

أيستدين ادورد من اصحابه ؟ لم يعتد . وقد عزَّ عليه جدًّا ان يلجأ الى احدٍ منهم وهو شارد من بيت خاله لانه قدَّر انهم يتردّدون في اقراضه وهو على هذه الحالة لظنهم انهم قد لا يستوفون ما يقرضونهُ اياه بل شق عليه جدًّا ان يعرف احدٌ من اصدقائه بفاقته . وقدكان مخطئاً بظنونه هذه لان اصدقاءه لو عرفوا بأمرهِ لتهالكوا في بذل انفسهم له وكان اشدهم امتناناً له من يقبل هو اكبر قرْضٍ منه وأعتبهم عليه وألومهُم له من يتجنب هو ان يقبل منه خدمته . ولكن أنفة ادورد انتفخت حتى استنكف ان يقبل المنحة ولو نزلت عليه من السماء بل استنكف أن يبيع البدلة التي اشتراها لكي ينفق ثمنها على ضروريات معيشته اليومية

قال في نفسه « اذا لم يكن بدٌّ من الاحتباس والصيام معاً منذ غدٍ فليكونا اليوم اذ لا فرق بين اليوم والغد . ولويزا قالت لي لا تعدّ الايام بل اعتبر ان لا زمان في الوجود فاليوم والغد شيء واحدٌ » و بعد ان كاد يخرج من غرفته اعمل فكرته قليلاً ثم عاد فاقفل باب الغرفة وجلس الى مكتبهِ وجعل يقدح زناد قريحتهِ وينظم قصيدةً لكي يبيعها

الفصل الثالث عشر

« IN. OUT. »

على باب كل غرفة في ذلك الفندق بطاقة معدنية مكسوة بالميناء على الوجه الواحد منها مكتوب «IN» أي ان صاحب الغرفة موجود فيها وعلى الوجه الآخر « OUT » أي انه غائب عنها فلما كان ادورد على أهبة الخروج قلب البطاقة فجعل ظاهرها « OUT » دلالة على غيابه ولما عدل وعاد وأقفل الباب نسي أن يقلبها للدلالة على وجوده في غرفته

بقي ادورد حابساً نفسه في غرفته كل ذلك النهار حتى أتم القصيدة التي كان ينظمها فاستلقى على المقعد واهيَ القوى أولاً من شدة التعب العقلي وثانياً من شدة الخوَر لانه منذ المساء الآنف لم يذق طعاماً . و بعد هنيهة عاد فقرأ قصيدته وطرب بها جداً وقدَّر انه سينال ثمناً وافراً بها ثم طواها وأودعها جيبه ونزل الى المطعم فأكل . ولما قُدِّمت له قائمة حساب وجد ان حسابه يزيد ربع شلن على الشلنين اللذين يملكهما فتمنى لو أن الارض تفتح فاها وتبتلعه . سبق السيف العزل ماذا يفعل . دفع لخادم المائدة الشلينين

وقال له غداً أدفع لك الباقي مع حساب الوجبة التالية . فنظر اليه الخادم شزراً لانه لم يعتد مثل هذا الوعد وما حدث معه ولا مرَّة أن آكلاً عنده يسوّف حساباً أو جزء حسابٍ

عند ذلك شعر ادورد بمنتهى الهوان وكاد يطفر الدمع من عينيهِ . وقد اعمل ذهنه لكي يدفع عنه هذا الهوان فخطر له ان يستعيد عمل حسابه فأعاده الخادم فاذا بالحساب الاول غلط والصواب انه ينقص عن الشلينين ٣ بنسات فأخذها ادورد من غير أن ينظر الى الخادم مشفقاً أن يزيد خجله من نفسهِ . وعاد وليس معه من النقود الاَّ ربع شلنٍ

وفي ما هو صاعد في سلم الفندق الى غرفته لكي يبيض القصيدة التقى به الفندقاني فقال له

ـ كنت كل النهار غائباً يا مستر سميث . تفقدنا غرفتك مراراً فلم نجد على الباب « IN. » ولا مرة واحدة

ـ وما الداعي ؟

ـ أتى رجل الى هنا وأودع لك عندي هذه الورقة المالية بقيمة مئة جنيه وهذه الرسالة

فتناول ادورد البطاقة وقرأ ؟

« حضرة المستر ادورد سميث

« بعد السلام . اذا كنت تجد استقلالك اهنأ لك وأشرف فلا انكره عليك بل أهنئك به . صرت رجلاً وبذلك أسر أن اراك تتمتع بحريتك الشخصية . وان كنت ترى نفسك قد أصبحت في غنى عن عنايتي بك فلا أظنك تستغني

عن قليل من المال في أول مرحلة من مراحل استقلالك ولذلك ارجو منك أن تقبل هذه القيمة الزهيدة الآن ولا أزال لك عند كل اقتضاء. واقبل فائق احترامي   جوزف هوكر »

قرأ ادورد هذه الرسالة غير مرة وهو يستغرب لهجتها لانها تراءت له جفاءً فاشتد غمُّه وتزايد غيظه حتى صار يشعر أن كل حرف فيها وخزةٌ في فؤاده ثم سأل الفندقاني

- ألم يقل لك انه سيأتي ليراني ؟

- كلاَّ

فصعد ادورد الى غرفته وأودع رسالة خالهِ والورقة المالية في مغلّف مصمما على أن يردها له في البريد . ثم جلس الى مكتبه وبيَّض القصيدة ونزل فمر بدار البريد وأرسل المغلف (مسوكراً) . على أن ادورد تسرَّع في ما فعل وفي ما ظنه من جفاء خاله لان خاله لولم يكن ينوي زيارته لما أتى الى الفندق وأودع له الورقة المالية عند الفندقاني بل كان قد ارسلها في البريد . ولكن هو نزق الشباب يتزايد في حال الغضب . ثم قصد ادورد الى ادارة جريدة « الدايلي ميل » وعرض القصيدة بواسطة الخادم على المدير فردَّها هذا من غير أن يقرأها وكتب له على بطاقة :

« نشرنا قصيدة النرجسة فكان صداها ضعيفاً جداً ولذلك نأسف على اننا لانقدر ان ندفع ثمناً لهذه القصيدة الثانية ومع ذلك نؤمل انك بمزاولة النظم تبلغ شأواً بعيداً في الشعر »

وقد ظن ادورد أن المدير قرأها وتأملها جيداً فلم ترق له فعادالى

غرفته كاسف البال وهو يعتقد ان القصيدة لا تصلح فاستحى أن يعرضها على جريدة أخرى لئلاَّ يخذل أشد من هذا الخذلان .

أضجع في سريره منتهك القوى لانه مشى مسافة طويلة اذ فرغ جيبه من بنساته ولانه كان حزين القلب وكان ظل اليأس يتكاثف على نفسه ونور الرجاء يتلاشى من امام بصيرته حتى امتزجت ظلماء قنوطه بظلمة ذلك الليل ولولا الرجولية لبكى

ندم على رد الورقة المالية التي أودعها خاله له مع الفندقاني ولكن نفسه الشامخة قالت «لا . لا بأس . حسناً فعلت» . ثم خطر له ان يطلع لويزا على حالهِ ويستدين منها نقوداً لانه اعتقد انها هي الصديق الوحيد الذي لا يستهين بهِ في هذه الحال . ولكن اقشعرَّ بدنه عند هذا الفكر وحسبه تجربة من ابليس

بزغ الفجر وادورد لم تكتحل عيناه بغفلة فنهض من سريره وجعل يتمشى في أرض الغرفة وهو يفكّر ماذا يفعل . لم يعد يلتفت الى القصيدة ولا خطر له ان يسعى الى الاسترزاق من القلم فصار يفتكر ان يطلب عملاً في بعض المعامل بأي راتب وان يختصر أسلوب معيشته أكثر من قبل وان يغير اسمه ليتنكَّر حتى عن لويزا ما دام في حال سيء

الفصل الرابع عشر

« فوز النفس الكبيرة »

ولما كانت الساعة الثامنة وهو لم يزل في غرفته قُرِعَ بابه ففتح فاذا مع

الخادم رسالة يدل مغلّفها على انها من جريدة الدايلي نيوز ففضها وقرأ ما يأتي :

سيدي — قرأت لجنة المحررين في ادارة « الدايلي نيوز » قصيدتكم « النرجسة الذابلة » المندرجة في الدايلي ميل فأعجبت بها ولذلك قرَّرت ان تقترح عليكم نظم قصائِد مختلفة على نمطها وتبتاعها منكم بالثمن الموافق

المدير

هـ . ص

فسُرّي عن قلب ادورد شيئاً وتناول قصيدته الثانية وجعل يقرأها فكان يطرب بها وغالط نفسه مراراً في انها بديعة ولكن كان اعجابه بها يتغلّب على المغالطة . وأخيراً قال لنفسه « لا ريب أن مدير الدايلي ميل الذي رفضها بالامس جاهل لا يفهم الشعر » ثم لفها ووضعها في جيبه وقصد الى الدايلي نيوز فمشى ساعة الى ان وصل فلما قرأها المدير نقده ثمنها مئة جنيه فعاد من ادارة الجريدة بمركبة ونور البشر يمزق غياهب اليأس التي تلبدت في سماء أمانيه في الايام السابقة

جاء توًّا الى الفندق وكتب لخاله ما يأتي :

سيدي المحترم

أشكر فضلك الذي لن أنساه ولن أقدر ان أفيكه . بعت اليوم قصيدة من نظمي بمئة جنيه . عشرة جنيه تكفيني نفقة شهر فخذ التسعين الباقية من أصل الاموال الغزيرة التي انفقتها عليّ . ما دمت في قيد الحياة وما دمت اكسب افيك بعض فضلك . لا تكلف نفسك ان تسعى اليّ فانا احتاج اليك فاسعى اليك .

ادورد سميث

أما ما كان من المستر هوكر بعد غياب ادورد الفجائي فانه بحث كل ذلك الاسبوع عن مقامهِ الى ان هداه اليه احد معارفه الذي صادفه مرة خارجاً من ذلك الفندق . فقصد اليه لكي يراه ويقدم له المئة جنيه فلم يتفق له ان يجتمع به فترك له المبلغ مع الرسالة كما ذكر آنفاً ومضى على نية الرجوع في فرصة أخرى ولكن لما رجعت له رسالته والمئة جنيه التي أودعها مع الفندقاني لادورد بكى ثم تجلد وعدل عن زيارته ليرى ماذا يكون من امره . ولما ارسل ادورد له التسعين جنيها طي تلك الرسالة الملأى من الأنفة كبر الامر عليه وصمم على تركه ثم رد المبلغ له فأرسله ادورد ثانية فقبله المستر هوكر وكتب لادورد اني ادّخرهُ باسمك في بنك التوفير فأجابه ادورد اني انكرها . وبقيت هذه الاموال موضوع تدافع لاتنازع بين الخال وابن الاخت

وقد اصرَّ ادورد على كل ذلك اي على هجران بيت المستر هوكر ورد الاموال التي انفقها عليه أوَّلاً لكيلا يكون مقيداً بجميل لخاله ولا تبقى له عليه دالة الاب على الابن فيضايقه حيناً بعد آخر بعرض أليس عليه زوجة . وثانياً لتغيظه منه لانه رجح بل اكد ان سخط اللايدي بنتن و إباءَتها دخوله الى القصر ومعاشرة ابنها روبرت لايمكن ان يكون سببهما الرسالة التي طلب فيها يد لويزا لان جل ما للايدي بنتن من الحق هو ان ترفض الطلب لا ان تسخط فلابدَّ اذاً ان يكون سببهما رسالة بعث بها خاله للايدي بنتن يشي فيها بهِ وِشاية تستوجب سخطها عليه فإما ان يكون قد ارسلها على أثر محاورته الاخيرة معه التي انتهت بنزول المستر هوكر من البيت ساخطاً حانقاً او على

أثر ارسال ادورد رسالة الطلب للايدي بنتن . والذي حمله على هذا الظن الثاني انما هو الكلمة التي قالها له خاله وهما لدى المائدة في مساء اليوم الذي كتب فيه رسالة الطلب وهي : « غداً تنتظر خيراً ان شاء الله يا عزيزي » فمن هذه الكلمة ظن ادورد ان خاله عرف برسالة الطلب . ولما علم من لويزا ان امها سخطت قدَّر ان خاله أردف الرسالة المذكورة برسالة وشاية تُغضِب اللايدي بنتن وتكفها عن قبول الطلب اذا كان ممكناً أن تقبله وانه فعل ذلك لكي يزيل العقبة الناهضة في سبيل مشروعه أي اغراء ادورد على أخذ يد أليس

على ان ظن ادورد هذا بعيد الاحتمال جداً . ولكن الانسان متى خابت آماله توهم كل الناس حتى أقاربه أعداءه . وادورد نفسه استضعف هذا الظن ولم يجسر أن يعاتب خالهُ على موضوعهِ وانما بقي متغيظاً في نفسهِ ومقسماً الاَّ يعود عالة عليهِ بل صمم على أن يفيه كل ما أنفقه وان ينشئ لنفسه مجداً يستحق بهِ يد لويزا من غير أن يستعين بفضل خالهِ

الفصل الخامس عشر

« صعود سريع »

ذلك ما كان من أمر ادورد مع خالهِ وأما ما كان من حاله في عهد استقلاله فهو ان القصيدة الثانية التي نشرتها « الدايلي نيوز » كان لها صدى بين قراء اللغة الانكليزية ظلَّ يدوي في العالمين حتى ظهرت في الاسبوع التالي قصيدة ثالثة له فاقت على شقيقتيها بداعة . ومنذ ذلك الحين كانت

رسائل مديري الجرائد والمجلات تتوارد اليه وكلها التماسات لما ينظمه من القصائد وقد تنافس أولئك المديرون في عرض الاثمان الباهظة لقصائده حتى بلغ الثمن الذي عرضته الدايلي ميل (التي رفضت قصيدته الثانية) ألف جنيه

وبعد ذلك طلبت جريدة التيمس الى ادورد ان يكون بين محرريها الكبار فرضي على شرط ان يبيع مقالاته لا أن يأخذ ماهية شهرية. وفي عهد قصير اشتهر كاتباً سياسياً كما اشتهر شاعراً وصارت الجرائد تغريه بالاثمان الباهظة لمقالاته . فاجتهد في دراسة السياسة وقد استكدّ قواه في دراستها ما وضعه نصب عينيهِ من امل الارتقاء في سلمها حتى يبلغ الى قمتها ويتبوَّأ منصباً في الحكومة

ذاق ادورد الذل والهوان اسبوعاً واحداً فقط وبعده اصبح عزيزاً وفير الدخل جداً حتى انه دفع لخالهِ في ذلك العام ما يساوي كل نفقاتهِ عليه في العشرين سنة التي غبرت ومع كل ذلك ظل مصمماً على ان يدفع لهُ طول حياتهِ كل ما زاد على نفقاتهِ وكان ما يزيد عليها يبلغ اضعاف اضعافها . وأما المستر هوكر فكان يودعها البنك الاقتصادي باسم ادورد

هذا من حيث غنى ادورد واما من حيث جاههِ فقد اصبح ذا مكانة سامية في اندية الكبراء والشرفاء وكان يشار اليهِ بالبنان. اما اللايدي بنتن فما زالت لذلك العهد تأبى اقل صلة بهِ ولكنها في المجالس العمومية لم تكن لتنكر مكانته الادبية والاجتماعية ولا استنكفت ان تمتدح ذكاءه ونبالة نفسه حتى كان يستدل انها تودُّه. واما اباءَتها ان يدخل قصرها او ان يكون صديقاً لاحد من أسرتها فكانت سراً مكنوناً

واما لويزا فكانت فرحةً جداً بارتقاء ادورد حبيبها ومؤملة نتيجة سعيدة لها من جراء بلوغه الى قمة المجد التي كان يرقى اليها بسرعة . وكانت كل حين بعد آخر تراه في المحافل العمومية ولا تجسر ان تكلمهُ امام أمها ولكنها كانت تغنم الفرص الموافقة للقائهِ وبثّ عواطفها نحوه كانها بتلك الاجتماعات تلقم وطيس حبهِ وقيداً لتزيد قواه في السعي الى العلى وطلاب المجد

اما أليس ابنة خاله فلما رأت انها كلما تقرَّبت منهُ وتحببت اليهِ زادته ابتعاداً عنها وان ضغط ابيها عليهِ قد نفَّرهُ حتى هجر البيت وانه كلِف بحبّ اللايدي لويزا بنتن ـ قالت في نفسها «حتى متى اترامى عليهِ» وجعلت تلك الغيرة تتحوَّل الى كرهٍ شيئاً فشيئاً حتى زالت تماماً وساد الكره مكانها برهة قصيرة . ثم جعل الكره ينقشع شيئاً فشيئاً عن صفاء فؤادها حتى انجلى عن الحب الاخوي الثابت فصارت تتوق ان تراه في البيت كاخٍ . وفي ذات يوم كانت وابوها في الحديقة يتمشيان فقالت :

ـ يا أبتاه . ألم تشتق الى ادورد ؟

ـ جداً يا ابنتي

ـ ولماذا لا تراضيه وتدعوه كل يوم بعد آخر ؟

ـ راعيت عواطفك بذلك فاني كنت اظن انك اصبحتِ تكرهينهُ لاجل اعراضهِ عنك ومجافاته لكِ وخشونته في معاملتك

ـ كنت اكرهه كما ظننت ولكن لم يدم هذا الكره فصرت اتوق اليه كأخ . سامحهُ يا ابي وادعهُ فان البيت قاتم بدونهِ . لم اعد ألومه على

اعراضهِ اذ اقتنعت الآن ان قلب الانسان ليس في يدهِ ليهبه متى شاء لمن شاء

فتأثر المستر هوكر من كلام ابنتهِ الصادر عن فؤادٍ كله طيبة ولكن بقي في قلبهِ سحابة خفيفة من الحقد على ادورد لانه بعنادهِ خيَّب كل آماله الكبيرة التي ظل يحلم بها عشرين سنة على انهُ مع ذلك غلبت عواطفه الرقيقة على حقدهِ وسعى الى مراضاة ابن اختهِ . ولكن كان ادورد قد ارتقى في سلم نجاحهِ وازداد جفاؤهُ لخالهِ بعد الفراق الطويل فلما تقابلا تعاتبا قليلاً وتصافيا وزار ادورد بيت خالهِ ولكنهُ اذ اصبح لذلك العهد في شواغل وشؤون صحافية وسياسية لم يتسنَّ لهُ ان يزورهُ الا كل اسبوع مرة زيارة قصيرة

الفصل السادس عشر

« ويأتيك بالاخبار من لم تزوّدِ »

على ان ادورد رأى ان بلوغه الى قمة المجد الذي يبتغيهِ ان كان ممكناً غير قريب بل لا بد لهُ من اعوام فلم يطق صبراً طويلاً على امساك لويزا عنه وكتمان هواهما فجعل يفكّر عساه يجد حلاًّ قريب المنال لهذه المسألة فكان لا يتوسد فراشه الا وهو يهجس فيها . وقد خطرت له وسائل عديدة لمبتغاه ولكنها تراءت لهُ كلها عقيمة او صعبة . ومما خطر له ان يبحث عن نسبهِ لعلهُ يتوصل منه الى ما يشفي غله ولكن هذا الخاطر كان اعقم خواطرهِ بل رآه غروراً وسخافة في ما يتعلق ببغيتهِ . على انهُ

تذكر في ذات ليلة حديثه مع المستر جاكوب داي صاحب الحانوت الذي ضمَّد جرحه وذكر قوله لهُ ان يبحث عن نسبه من قبيل العلم بالشيء فهاجت هذه الملاحظة خاطره ومال شيئاً فشيئاً الى البحث حتى اشتد فيهِ هذا الميل وصار يفكر في كيف يبحث ومن يسأل . ولا ريب ان يخطر له ايضاً ان ذلك الشيخ الحانوتي يعرف شيئاً عن نسبه ولكنهُ يكتمهُ لسببٍ والاَّ لما نبههُ اليهِ . فعزم على ان يقصد اليه ويتسقَّط منه ما يعرفهُ من الاخبار من هذا القبيل ان كان يعرف شيئاً

وفي اليوم التالي كان ادورد يتنزه على ظهر جواده كعادتهِ في عصارى احد الايام فمرَّ بحانوت المستر جاكوب داي . فلما رآه الشيخ خرج من حانوته وترحَّب بهِ والحَّ عليهِ ان ينزل عن ظهر جواده ويستريح ريثما يشرب كاساً من الشراب . فنزل وقعدا يتحدثان

ـ سمعت انك تشتغل في السياسة الآن يا بنيَّ

ـ نعم

ـ مستقبل مجيد ان شاء الله . ولماذا خاصمت خالك ؟

ـ من قال لك ؟

ـ أنسيت ان ابني هنري خادم عنده وقد عرف كل شيء حتى ما لا ان يمكن يعرفه الخدم وهو يأتي في الاسبوع يوماً ويسرد لي كل ما يعرف

ـ ماذا عرف ؟

ـ عرف أن خالك عرض عليك ان تتزوَّج ابنته اليس فتتمتع بمال ومجد معاً وانك ضحيت المال والمجد لاجل حب فتاة بعيدة المنال . وانك

افترقت عن خالك وتفيهِ الآن أمواله التي انفقها عليك لكيلا يبقى له سبيل لاغرائك على انجاز امنيتهِ . . . .

فدهش ادورد لهذا القول وسأل : كيف عرف ذلك ؟

ـ ان ابني ذكي نبيه ومع ذلك هو طيب القلب يحبك فلا توجس منه

ـ ولكن كيف عرف ؟

ـ عرف من دموع مس أليس ومن بعض الفاظ كانت تبلغ الى أذنيهِ عن غير اصغاء منه وأنتم الى المائدة ومن الاوراق المنفية التي كنت تطرحها في السلة وهو يرميها مع الزبالة و . . . .

فانتبه ادورد الى ذلك وقال لنفسه بصوت مسموع «اذاً كذا عرف خالي أمر الرسالة » ثم وجَّه خطابه للشيخ داي :

ـ نعم ايها العم . فاني اشفق على أليس ابنة خالي . تحبني حب الفتاة للشاب وانا احبها حب الاخ للاخت لاننا ربينا معاً كالاخوين فيستحيل عليَّ ان احبها غير هذا الحب الاخوي ولاسيما لاني مولع بحب فتاة نبيلة ولكن حصولي على يدها عزيز عليَّ جداً لان امها من سلالة بيت شريف وزوجة شريف فلا تشاء ان تزوجها الاَّ شريفاً ولذلك تراني اجاهد في عالم السياسة الآن لعلي ارقى الى قمة الشرف . على اني مللت هذا التوقُّع ونفد صبري

ـ على ذكر السلالة فكَّرتني . ألم تزل تجهل نسبك ؟

فتنبه ادورد لهذا السؤال جيداً وحزر ان الشيخ داي لايسأله هذا السؤال اعتباطاً بل لابد ان يكون ينوي شيئاً أو يعرف سراً فصبر ليرى ماذا ينتهي بهِ تسآله الخفي هذا وسأله :

ـ واي فخر بنسبي يستحق ان ابحث عنه ؟ سألت خالي مرة فقال لي ما كان يقوله من قبل . واخاف اني اذا بحثت عن اقاربي لأبي اجرُّ على نفسي عاراً او حقارةً من تقربهم اليَّ اذا كانوا منحطين

ـ ولكن قد يكونون معتبرين فتفخر بهم وربما كانوا اعوانك في مطامحك والاَّ فتنكر قرابتهم مدَّعياً انك من اسرة سميث اخرى غير اسرتهم لان اسرات سميث عديدة

فأشرق وجه ادورد لهذا القول ورجَّح في يقينهِ ان الشيخ يعرف كثيراً عن سر نسبه فقال متغافلاً :

ـ دعني مهما كانوا فاني على ما اظن ارفع مكانة منهم ولو كانوا شيئاً في الدنيا لبحثوا عني ولم يتركوني لعناية اهل أمي

فسكت الشيخ وعلى وجهه امائر الكلام فقال له ادورد

ـ تكلَّم . في وجهك دلائل كلام احب ان تقوله وان كان سراً فبح به ولا تخف فان صدري بئر اسرار بلا قرار

ـ لا أسرار عندي وانما خطر لي ان استفتيك بمسألة مهمة جداً وارجح انك تقدر ان تصيب بالفتيا لانك تشتغل بالسياسة والصحافة الآن ومسألتي قضائية سياسية

ـ قل

ـ انما هي حكاية طويلة بعض الطول فاخاف ان تملَّها

ـ كلاَّ بل اسمعها بلذة مهما كانت لاني ككاتب اعرف كيف استفيد من حكايتك

واستوى ادورد في مكانه وكان كانه كله آذان يستوعب بها حديث الشيخ داي وصار ينتظر ان يسمع منه سراً غريباً فقال الشيخ :

ـ اذاً خذ كاساً أخرى من الوسكي واعرني اذنك

وناوله كاساً واعتدل في كرسيه وجعل يتكلم

ـ كان فتى غنيٌّ من عامة الناس شريكاً لفتى شريف على معمل كبيرٍ وكانت بينهما صداقة متينة جداً وكان للفتى الشريف أخت فطمع الشاب الغنيُّ بيدها وطلبها الى ابيها واخيها شريكه فقبلاهُ بعلاً لها . اما هي فسخطت وغضبت لانها كانت متكبرة جداً وحسبت ان قبولهما بطالب ليس من الاشراف اهانة لها وقالت « انا الآن « لايدي » فكيف ارضى ان أصير « مسزاً » ؟ لا ارضى بعلا الا لورداً كابي لكي ابقى لايدي كما انا وكما كانت امي من قبلي » . فأغريت بثروة ذلك الفتى فلم تغرَ لانها كانت تؤثر القاب الشرف على كل غنى . ولما نفدت حيل الفتى في استمالتها صمم على ان يبذل جهدهُ في تذليل كبريائها مهما استطاع ووضع نصب عينيهِ مشروعاً لذلك وهو أن يغري شريكه اللورد اخا تلك اللايدي بان يتزوَّج اختــه اي اخت الفتى العامي الغني فكان يبالغ في اكرامهِ والتودُّد اليهِ والفتاة لم تدَّخر جهداً في محاسنتهِ حتى وقع اللورد في حبها وطلب ان يتزوجها فاستشار اباهُ واخته في ذلك فابيا كل الاباءَة . وقد كان لاخته المتصلّفة تأثير عجيب على ابيها فحملته ان يتهددهُ بحرمانه من لقبهِ وميراثه اذا تزوج تلك الفتاة لانه يشق عليها جداً ان تكون امرأة اخيها غير شريفة الحسب

ولكن الفتى الشريف كان يحب الفتاة حباً شديداً فاشار عليه اخوها ان يتزوجها سرًّا ويبقي الزواج مكتوماً ريثما يموت ابوه فيعلن زواجه واذ ذاك لا تعود اباءة اخته تجدي شيئاً . فاستصوب الفتى الشريف هذا الرأي وعقد الزواج شرعياً سرًّا وكان يتردد على زوجته وهي في بيت اخيها من غير ان يعرف ابوه او اخته شيئاً من ذلك . بيد ان خادمه الامين الذي كان يحبه جدًّا كان عارفاً بكل ذلك ولا بد من معرفته ما دام لا مندوحة لسيده وسيدته الجديدة من خدمه

وما انتهت السنة بعد عقد الزواج حتى ولدت الزوجة ذكراً وماتت على اثر النفاس فحزن عليها زوجها حزناً شديداً حتى كاد يجن وعلى الاثر مات ابوه فازداد حزنه وانتظر فرصة موافقة لاعلان زواجه واظهار ابنه اليتيم لاختهِ ولكنه كان في ابان حزنه يسرّي عن نفسه تارة بالشرب الى حد السكر وطوراً بالالعاب وآخر بالمقامرة . وكان ضعيف القلب جداً بحيث ان تلك الاحزان واساليب معيشتهِ المختلفة قضت عليه فجاءة في ذات ليل وهو في فندق القمار قبل ان يعلن زواجه وابنه لاخته كما نوى اي بعد بضعة ايام لوفاة ابيه . واتفق ان كان خادمه معه اذ أصابه الخفقان العاجل الذي لم يُمهلهُ عشر دقائق فاستدعى الخادم شريكه اخا زوجته في الحال . فلما دخل هذا عليه ورآه جثة بلا حراك بكى بكاءً مرًّا وتمتم قائلاً « مات قبل ان أُنفِذ مأربي ولكني سأجعل هذا المأرب اتمَّ ان شاء الله » ثم جلس يتأمل . فقال له الخادم « يجب ان نأخذه الى قصره ولكن لا بد ان تعلم اخته ببعض امره قبل ان تراه لئلا تقضي عليها هـذه المفاجأة الرهيبة »

فقال : « ولكن قبل كل شيء يجب ان اعرف كيف مات » . فقال الخادم . « فجاءة مات »

ــ « لا يمكن . لان لون وجههِ يدلّ على انهُ مات مسموماً » فذهل الخادم من هذا الظن وقال :

ــ « لازمته كل هذا النهار فلم ارَ من يدسُّ السمَّ له . فلا يمكن ان يكون مسموماً وانما مات فجاءة بعلة قلبية لاني كنت اسمع الاطباء ينصحونه ان يغير اسلوب معيشتهِ لان قلبهُ ضعيف جداً فيخشى عليهِ من السكتة القلبية . وقبل ان يسلم روحه قال اشعر بخفقان شديد »

ــ « لا . لا يفيد هذا التعليل » . ونظر اليهِ نظرة غضب مخيفة ثم نهض وخرج خارجاً وعلى وجههِ امارات الشر فاوجس الخادم منهُ شرًّا فتبعه من حيث لا يدري فسمعه يقول لخادم الفندق « ادع الشرطي حالاً » فسأله خادم الفندق السبب فقال « ان اللورد الذي مات عندكم مات مسموماً ولا بد ان يكون خادمه قد دسَّ له السم طمعاً في نقودهِ »

فلما سمع خادم اللورد هذا الحديث المختصر اضطرب وخاف جدًّا وقال في نفسهِ لعلَّ احدًا دسَّ السم لسيدي فمات فتثبت عليَّ الشبهة بي فما خطر لذلك المسكين البريء الا الفرار فاختبأ في زاويةٍ ريثما عاد اخو زوجة الميت الى الغرفة . وفي لحظة اصبح الخادم خارج الفندق فركب مركبة درجت به الى قرب ضواحي المدينة فتركها واوهم ان يدخل منزلاً ريثما عاد الحوذي بمركبته . ثم استأنف السير مسافة واكترى مركبة اخرى نقلته الى آخر الضواحي ومن هناك مشى الى اقرب محطة فركب

السكة الحديدية الى ليفربول واقام فيها باسم غير اسمه وحلق لحيته وشاربيه وبدل ملابسه فصار رجلاً آخر وجعل يشتغل آمناً . وقد مضى على هذا الحادث اكثر من عشرين عاماً . فهل يُقبَضُ على الخادم كجانِ الآن لو اعلن نفسه ؟ هذه مسألتي لك

ـ لا اظن انه يُقبض عليهِ بعد هذه المدة الطويلة

وكان ادورد يسمع هذه الحكاية مبهوتاً وهو يقول في نفسه « من هذا اللورد ومن هذا الفتى الغني » . ولكنه صبر ريثما استتلى حديث الشيخ فبعد اذ اجابه على سؤاله سأله :

ـ ولكن قل لي هل ثبت ان اللورد مات مسموما ؟

ـ ذلك ما لا ادريه ولكني ارجح ان الخادم صادق في ما رواه عن موتة سيده بالسكتة القلبية

ـ ولكن لماذا يتهمه اخو زوجة اللورد بهذه التهمة ؟

ـ فكَّرتُ كثيراً في هذا الامر فخطر لي انه يودُّ ان يكتم امر زواج اختهِ ريثما يجد مشروعاً آخر لتنفيذ امنيتهِ في اغاظة الشريفة المتصلّفة التي رفضته بعلاً لها . وبما ان الخادم هو الشخص الوحيد الذي كان يعرف سر ذلك الزواج لم يرَ بدًّا من ابعاده ففعل ما فعل لكي يحمله على الهرب والاختفاء وانكار كل علاقة له بالشريف واهله

ـ ولكن ماذا يفيده كتم زواج اخته المتوفاة في تنفيذ مأربهِ

فابتسم الشيخ قائلاً : ـ يفيده

ـ كيف ؟

ـ كان لذلك العهد قد تزوج ورُزِق فتاةً . فيظهر لي انه خطر لهُ ان يحفظ ابن اختهِ عنده ريثما يشب مع ابنته فيزوّجه اياها وثم يعلن نسبهُ وحينئذٍ لا تدري تلك الشريفة المتكبرة الاَّ ولها ابن اخ شريف وقد تزوج ابنة الرجل الذي رفضته بعلاً

فحدق ادورد في الشيخ جاكوب داي برهة ثم قال:

ـ عمَّن تتكلَّم ؟

ـ ماذا يعنيك ؟

ـ ارى قصتك انتهت بمثل بدء قصتي فقل بربك من هذا الرجل الغني ومن ابن اختهِ وابنته ومن الشريفة المتكبرة ومن اخوها ؟ قل لي

ـ ذلك سرٌّ يابني لا اقدر ان ابوح به لئلا يؤذى الخادم

ـ بربك لا تكتم السرَّ عني فاني اقسم لك اني لا ابوح بهِ اذا تحققت ان الخادم يؤذى . أفأنت الخادم ؟

ـ نعم أنا هو واسمي الحقيقي جوزف برون والرجل الغني هو المستر جوزف هوكر وابن اختهِ اللورد ادورد سميث ابن اللورد هركورت سميث

فانقضت صاعقة من الرعب على هيكل ادورد زلزلت مفاصله وانتصب منها شعر رأسهِ وتجمدت صمَّامات فؤادهِ حتى كاد يُقضَى عليهِ كما قُضي على ابيهِ في فندق القمار منذ عشرين عاماً واكفهرّ وجهه وفي الحال امتلك روعه وقال: أتقسم انك صادق في ما تقول ؟

ـ اذا لم تصدقني فلا تصدق قسمي فسلني عن بيّنة حسية

ـ أعندك بينة حسية ؟ تكاد تجنني بهذا البيان حتى اظنني في حلم

ـ بل انت في حقيقة يا سيدي اللورد . عرِّ ظهرك فاريك بواسطة المرآة صليباً موشوماً على الجانب الايمن منه هو دليل لتحقيق شخصيتك . وقد اثبت هذا الدليل في ورق بامضاء ابيك كتب على اثر ولادتك بناءً على مشورة خالك

فما انتهى المستر داي من الكلام حتى كان ادورد قد خلع ثوبهُ وتناول الشيخ في الحال مرآتين صغيرتين ووضع الواحدة مقابل الوشم والاخرى مقابل الأولى بحيث يرى ادورد فيها العلامة واضحة . وجعل يتأمل الوشم تارة ويفكّر في الحكاية اخرى . ثم لبس ملابسهُ وسأل :

ـ اين الورق الذي تسجلت فيهِ شخصيتي بامضاء ابي ؟

ـ لا بد انه يوجد عند خالك مع الاوراق التي تثبت شرعية زواج ابيك . هذا اذا لم يكن خالك قد اتلفها

ـ ويلاه الى عهد انفصالي عنه كانت لم تزل عنده وبعد ذلك لا ادري ماذا فعل بها

ـ وهل رأيتها عندهُ ؟

ـ نعم رأيتها . رأيتها محفوظة في حقيبة ولكن لم يقل لي ما هي بل قال : فيها مجد عظيم لي ومفتاحها الوحيد اقتراني بابنته . فلم اعبأ بقولهِ حينئذٍ ولا خطرت اهميته لي

ـ اتقدر ان تصف لي هذه الحقيبة ؟

ـ هي من جلد ازرق صغيرة توضع بالجيب وقد رُسِم عليها بماء الذهب اسم خالي نفسه

ـ هي هي اذاً بلا مشاحة يا سيدي

ـ اتظنهُ اتلفها بعد جفائي له ؟

ـ لا . لا اظنه يتلفها لان بقاءها معهُ يظل مفيداً له بعض الفائدة اذا لم يستطع ان يستفيد منها كلّ الفائدة التي كان يبتغيها

ـ ترى ماذا يستفيد ؟

ـ اذا لم يتسنَّ له ان يثبت بها ان صهره هو اللورد ادورد سميث ابن شقيق اللايدي سميث سابقاً فيثبت بها ان ابن اخته هو ذلك اللورد . وحسبه ذلك

ـ ومن هي اللايدي سميث ؟

ـ علمت بعدئذٍ انها هي اللايدي مرغريت بنتن الآن

فاقشعرَّ بدن ادورد وانتصب شعر رأسه وما درى نفسه الا وهو واقفٌ على قدميه وصرخ

ـ يا للعجب ! ألويزا ابنة عمتي ؟

ـ نعم ان التي اولعتَ بها يا سيدي اللورد ابنة عمتك

ـ هنئتُ بكِ يا لويزا وهنئتِ بي . هنئني يا سيدي الشيخ الخادم الامين لابي والرسول السعيد لي . قبلني كبيراً يا سيدي العم كابن سيدك كما حملتني صغيراً فان سعادتك مقرونة بسعادتي

فقبله الشيخ وضمه الى صدرهِ وذرف دمعتين على خديه

ثم جلس ادورد وهو كمن يرتاب في ما سمع ولكن كل لمحة من ملامح الشيخ كانت تدفع ريبه وكل حرف من حروف الحكاية كان ينطبق على

معاملة خالهِ لهُ ولذلك كان يتهلل ويبش كأنَّ شمساً تشرق عن جبينهِ . وبعد افتكار قليل قال :

ـ اتظن خالي لم يزل يحفظ الاوراق عنده ؟

ـ ارجح ذلك جداً لانه عاقل ومهما يكن متغيظاً منك فلا يبلغ غيظه هذا الى حد غيظه من اللايدي بنتن التي شمخت عليه وجرحت عزة نفسه برفضها اياه بل بالاحرى يفضل ان يعلن نسبك لانه يغيظ اللايدي بنتن اذ تعلم ان ابن اخيها هو ابن اخت المستر هوكر الذي خذلته . ولا اظن ان خالك يتغير قلبـه عليك الى درجة ان يحرمك مجداً عظيماً بلا حرج ولا اثم منك

وأنا أظن كذلك لانه يحبني حباً شديداً . ولكن أتظنه يمنحني الورق بلا تردد أو بلا شرطٍ اذا طلبتهُ منهُ ؟

ـ هذا ما لا أدريه

ـ اخاف ان يشترط عليَّ ان اتزوج أليس

ـ ربما يفعل . وما ذا يضرك ان تتزوجها ؟

ـ اواه ! ليتني أقدر فاني أودها واجلها ولكنني احب لويزا ابنة عمتي . أحبها وحدها فماذا افعل ؟

وأشرق وجه ادوَرْد عند قوله «ابنة عمتي» وقال في نفسه : «احقيق انا ابن خال لويزا. ما اسعدني ! حسبي ان اكون ابن خالها ! »

ـ اذاً لا اظنك وانت الكاتب الشاعر تعجز عن اقناعه والحصول على الورق

ـ اخاف ان يغضب ويحتد فيمزق الورق اذا اصررت على عدم موافقته

ـ اذا لاحظت انه على وشك الاحتداد فأقصر الحديث معه ولاطفه ودعه الى فرصة اخرى

ـ وبعدئذٍ ؟

ـ تفتكر باسلوب آخر

ـ اذاً الآن استودعك الله الى عهد قريب فاخبرك النتيجة

ـ ارجوك ان تكتم امري لئلاَّ ينقم عليَّ خالك فيؤذيني

ـ لاتخف . لا اظنك مسأولاً عن شيء البتة . ولا اظن ان دعوى خالي بتسمم ابي تجاوزت الفندق الذي هربت منه

ثم مضى ادوردو الفرح يستفزه عن الارض . ولا ريب ان القارئ الكريم يتوقع ان اول مايقصده مقابلة لويزا وكذا كان

الفصل السابع عشر

« موعد فلقاء »

في ذلك المساء ظهرت اللايدي لويزا بنتن في مقصورة من مقاصير الملعب الملكي (الاوبرا) فاجتذبت كل الابصار الى شعاع جمالها الباهر . سرَّحت نظرها في جميع جهات الملعب والابتسام يتدفق من بين شفتيها كينبوع نورٍ . تنقَّل نظرها على كل المقاصير ثم على الكراسي الى ان استوقفته « وردة صفراء » في صدر ادورد وهو بالقرب من مقصورتها . وقد علم القارى ان الوردة الصفراء في صدر ادورد كانت للدلالة على انه يحتاج الى مقابلة

لويزا لامر كما اتفقا . فرأته ناظراً اليها وفي محياه وميض سرور اشد تألقاً من المعتاد فابتسمت له ابتسامة خصوصية وصارت تفكّر في ماذا عسى ان يكون مراده من لقائها بعد ما قابلته بالامس . وكانت كل هنيهة تلتفت بهِ فتراه ناظراً اليها ووجهه يهلّ حبوراً وأمائر اللهفة بادية في اسارير وجهه كانه قَلِقٌ . فحارت في امره وخطر لها الف خاطر الاَّ خاطر انه قريبها . فغمزته ان يلاقيها في مقصورة اللايدي جنستون صديقتها . وفي اثناء ارخاء الستار انتقلت الى تلك المقصورة وهي قريبة من مقصورتها وفي الحال كان ادورد في الباب فحيا اللايدي جنستون ومن معها وهي من اعز صديقاتهِ لانها صديقة لويزا

فاغتنمت لويزا فرصة التهاء البقية بالحديث وهمست

ــ ما الخبر؟ شغلتَ بالي . اراك فرحاً قلقاً

ــ ولا عجب لو رأيتني مجنوناً من الفرح

ــ ماذا ماذا ؟ قل لان الفرصة قصيرة جداً

ــ لا وقت الآن يا لويزا . اين اراكِ غداً ؟

ــ في مونتمار من الصبح انتظرني عند بوابة الحديقة من الداخل فاني ادعها غير موصدة كالعادة . ولكن قل لي ما الخبر ؟

ــ مفرحٌ جداً وهو مقلق لكِ اذا عرفتهِ من غير تفاصيلهِ

ــ وجهلهُ اشد اقلاقاً . فقل قبل ان امضي

ــ انا ابن خالك يا لويزا وانتِ ابنة عمتي

فظنتهُ يمزح في قالب الجد وقالت مبهوتة

ـ ماذا تقول ؟

ـ كما سمعت

ـ اتهذي ؟

ـ وان قرأتِ ذلك بعد ايام في « التيمس » وسائر الجرائد اتقولين اني اهذي ؟

فتأملت لويزا هنيهة ثم قالت :

ـ لم افهم ماذا تقول

ـ غداً تفهمين

ـ الى الغد اذاً

وعادت لويزا الى مقصورتها والحيرة مقروءَة في مقلتيها حتى لاحظ ابواها واخوها وسألاها ما خبرها فابتسمت وفي الحال انتبهت لنفسها وغيَّرت ملامحها . وفي ذلك الليل لم تنم فكانت تبني قصوراً وعلالي ولكن ليس في الهواء

وفي الموعد المعين اجتمع ادورد بلويزا وصدره ارحب من السماء لها وفي الحال عانقها ولثمها فدفعته عنها خجلة قائلةً : ما بالك تطفر هكذا ؟ ما الخبر؟

ـ الآن صار يحق لي أن اقبِّلكِ يا لويزا لان حبنا لم يبقَ عقيماً بل صار مثمراً فاني ابن خالك اللورد ادورد سميث ابن اللورد هركورت سميث اخي اللايدي مرغريت سميث سابقاً واللايدي بنتن حالاً وعما قليل تكونين اللايدي سميث كما كانت امك قبلاً

ـ قلت لي مثل ذلك منذ امس والى الآن لم افهم

فاخذ ادورد يروي لها حكاية الشيخ جاكوب داي بالتفصيل وهي تسمع. وقلباهما يرقصان طرباً على موسيقى هذه البشارة السارّة الى ان انتهى ادورد من حكايتهِ فدنت منهُ لويزا وقبلتهُ قائلةً اقبّلك باعتبار انك ابن خالي الآن

ـ وبعد الآن يا لويزا ؟

فضحكت وقالت : اقبلك باي اعتبار تشاؤه

ـ قبليني باعتبار انك اللايدي سميث

ـ لا تكن متسرعاً يا ادورد ؛ اما افتكرت كيف تحصل على الاوراق من خالك ؟

ـ افتكرتُ ولكني اخاف أن يتلفها اذا كان يأبى أن يعطينيها. فما رأيك اذا اخبرت اللايدي بتن بالامر لعلَّ لها رأياً اصوب في الاستحصال على هذه الاوراق ؟ ألا تظنين ان الامر يهمها ؟

ـ بالطبع يهمها ان تعرف ان لاخيها ابناً في الوجود وارثاً لقب اسرة سميث لانها كانت تحب اباك جداً والى الآن اذا ذكرته تتحسر وتتأسف عليه واحياناً تذرف الدمع . والذي ظهر لي انها لم تعرف قط انه تزوّج

ـ ومتى ثبت لها اني ابن اخيهـا اللورد سميث فهل تظنين انها تمنع عني يدك

ـ لا اظنها تمنع لانها تحبك على ما ظهرلي وكانت تثني عليك ولهذا طالما حيرَّني امر إباءتها عليك دخولك الى قصرنا واما الآن فقد انحلَّ هذا

اللغز وثبت لنا ان السبب هو كرهها لخالك لا لك

ـ اذاً ماذا تظنين ابتشاشة تستقبلني او بعبوسة اذا زرتها او انها ترفض استقبالي ؟

ـ لا اظنها الاَّ مقابلتك ببشاشة لاني على ما الاحظ من ثنائها عليك انها نادمة على امرها السابق اذ شعرت انه ظلم وعداوة بلا سبب

ـ اذاً ازورها اليوم

ـ تفعل حسناً . فاقصد اليها الآن توًّا

الفصل الثامن عشر

« مباغتة »

في الساعة الرابعة بعد ذلك الظهر مثل احد الخدم امام اللايدي بنتن وهي في مقصورتها وقال لها ان شاباً يلتمس مقابلتها. ولما سألت عن اسمهِ قيل لها لم يشأ ان يذكر اسمه . فأبت ان تقابله ما لم يعلن اسمه فرجع الخادم يروي للزائر ما كان منها . و بعد هنيهة عاد يقول « انه اللورد ادورد سميث يامولاتي » فقالت « لا اعرف احداً بهذا الاسم » وأمرت ان تفتح له القاعة فدخل . و بعد قليل أقبلت عليه فذهلت اذ رأت ادورد الذي تعرفه من قبل وقد منعت قبول زيارتهِ في ما مضى . فرحَّبت بهِ مع حرصها على ابهتها وقعدت ثم سألت :

ـ قال لي الخادم ان الزائر اللورد سميث أفيعني حضرتك بهذا الاسم؟

ـ نعم يا سيدتي

فازدادت اندهاشاً وقالت شبه هازئة

ـ اذاً اهنئك بهذا اللقب الجديد فانك تستحقه

ـ ليس جديداً يا مولاتي لاني لم اخدم خدمة تستحق هذا اللقب وانما هو قديم موروث

ـ اذاً توجد أسرة من الاشراف باسم سميث غير أسرة آبائي ؟

ـ كلاَّ يا سيدتي ليس غيرها

ـ ممن ورثت اللقب ؟

ـ من أسرة آبائكِ يا مولاتي

ـ ممن منهم ؟

ـ من اللورد هركورت سميث

فاختلج بدن اللايدي بنتن عند ذكر اللورد هركورت وقالت برزانة :

ـ من هو اللورد هركورت ؟

ـ إيذني لي يا سيدتي ان اقول هو اخوكِ وانتِ عمتي

ففتحت اللايدي بنتن فاها ولم تعد تتكلم . فعاد ادورد يقول لها :

ـ لا تعجبي ياسيدتي . ما اقوله لك هو الحقيقة الراهنة

ـ لم افهم

ـ نعم هو لغز ما اقوله لكِ ولكن اذا سمحت لي اروي لكِ حكاية نسبي

ـ إروِ لأرى هذا العجب

وجعل ادورد يقص عليها الحكاية مغفلاً منها ما يسوؤها وهي مصغية

تهزُّ رأسها ولما انتهى قالت :

ـ ان قصتك محتملة الوقوع واتمنى صحتها ولكنها تفتقر الى الاثبات

ـ نعم يا سيدتي ولهذا اتيت استشيرك في كيفية الاستحصال على الورق من خالي

ـ ليس الاّ ان تباحثه بالامر . ولكن لماذا كتم خالك هذا الورق ؟

ـ اظن انه كتمه ريثما اشب جاهلاً نسبي لعلي اتزوج ابنته اذا اغراني وثم يعلن الاوراق ويفخر انه زوَّج ابنته من لورد . وقد اغراني بالفعل ولكن ذهبت مساعيه ادراج الرياح

ـ فهزَّت اللايدي بنتن رأسها قائلة باسمةً :

ـ اما كفاه انه زوَّج اخته من لورد ؟

ـ ألا تستصوبين يا سيدتي ان تكتبي له بهذا الشأن فتقولي انه بلغك ان اخاك تزوج اخته سرًّا وتسأليه ما اذا كان عنده بيّنة على ذلك لعلهُ يرسل اليك الاوراق من نفسهِ ؟

فهزَّت اللايدي بنتن رأسها هزة رحويّةً وقالت :

ـ كلاَّ . لا حديث لي معهُ

ـ عجيبٌ ألا يهمُّك الامر يا سيدتي ؟

ـ يهمني جداً ولكن يصعب عليَّ ان اكاشفهُ بامرٍ ليس له اساس عندي فالافضل ان تفاوضهُ انت وثمَّ نرى ماذا تكون النتيجة

عندذلك استأذن اللورد ادورد ان ينصرف على وعد العودة وخرج تاركاً اللايدي بنتن في هواجس وافكار . واذ ذاك ورد اليها البريد فجعلت تفضهُ

الفصل التاسع عشر

« نصاف »

اما اللورد ادورد سميث فعاد من عند عمتهِ توًّا الى خالهِ لكي يفاوضه بامر الورق فرحب به جداً وتهلل وجهه بشراً . ولما دخل ادورد وجدهُ منهمكاً بمعالجة كلبهِ فسألهُ ما علتهُ فقال :

ـ كنت في هذا الصباح في مكتبي هنا اقلِّب بعض الاوراق واكتب رسائل خصوصية اذ سمعتُ هذا الكلب يعوي عواءً شديداً يدلُّ على تألُّم فخطر لي ان بعض الخدم ضربهُ . وانت تعلم انه عزيز عليَّ جداً فنهضت في الحال واندفعت الى حيث العواء فوجدتُ الكلب في المطبخ كالمجنون فخطر لي انه قد كلب فكلمته وجمَّشته ودلَّست ظهرهُ ولاطفتهُ فلم يستكن ولكنه دنا اليَّ وتعلَّق باهدابي كانه يستغيث بي ولم ارَ في وجهه وعينيه اعراض الكلب فقلت للطباخ « ما خبرُه » فقال « لا ادري » فجعلت افحص بدنه فلم اجد فيهِ اثراً للضرب . ولكني رأيت ان شفتيهِ محمرَّتان متوردتان جداً فاستدعيت كل الخدم وجعلت استجوبهم عن امرهِ فانكروا كلهم ان واحداً منهم فعل به شيئاً . ولكني رأيت هنري داي وحده مضطرباً واجفاً دون سائر الخدم فتهدَّدته لكي يقرَّ بالحقيقة فقال : « اني اغتظت من الكلب لانه يجلس الى جانبي وانا اتلمَّظ الطعام واحياناً يتنفس في وجهي في حين اني اكره الكلاب . فلكي انفرّه مني فركت شفتيه وانفه بالفلفل الاحمر الحار » . وما انتهى هنري هذا من

حكايتهِ حتى دفعت لهُ حسابه وطردته من خدمتي

ــ اني اتأسف لذلك لاني اعلم ان هذا الفتى امين وغيور ونبيه

ــ والحق اقول لك اني اسفت جداً لطردهِ ولكن عملهُ هذا غاظني جداً فلم اتمالك ان اطرده على انه اذا عاد اقبله

فافتكر ادورد ان وجود هنري في بيت خاله قد يفيده في ما لو اقتضت الاحوال امراً فقال :

ــ سأكتب لابيه ان يردَّه لان ذنبه لا يستحق الطرد

ــ تفعل حسناً . اراك قد اتيت الينا في غير الميعاد المعتاد. عساك تود ان تتناول العشاء معنا

ــ أتناوله معكم . وانما اتيت الآن لكي اسألك بعض المسائل والتمس منك امراً مهمًّا ايها الخال

ــ خير ان شاء الله ! سل ما تشاء فلا أعزُّ عليك شيئًا

ــ لا اشك في ذلك بل أوكد اني لو طلبت مالك كله لما بخلتَ به ولكنَّ ما اطلبه ليس مالاً وانما هو خبر صادق

ــ ماذا ؟ سل

ــ سألتك غير مرَّة عن اهل ابي فكنتَ تقول لي انهم اناس خاملون في قرية حقيرة . ولكني لم ارَ الآن هذا الجواب شافياً فارجو منك ان تخبرني عن حقيقة نسبي . من هو ابي ومن هم اهله ومن هي أسرته ؟

فضحك المستر هوكر وقال :

ــ وما الذي يدعوك الآن الى هذا التحقيق ؟

ـ قيل لي اني من اصل شريف .....

فبغت المستر هوكر لهذا القول وسأل :

ـ من قال لك ذلك ؟

ـ أسرَّهُ اليَّ من يعرفه واستحلفني الاَّ أبوح باسمهِ ولا بسرِّه

ـ عجيب من يعلم هذا السرَّ ؟ لا اعرف احداً سواي يعلمهُ

ـ اذاً هذا السر حقيقي يا سيدي

ـ نعم حقيقي . ألعلك قابلتَ اللايدي بنتن اليوم ؟

ـ نعم انا عائدٌ من عندها توًّا اليك

ـ اذاً هي اخبرتك

ـ كلاَّ بل انا اخبرتها وقد ثبت لي من ملامحها ومن فحوى حديثها انها تجهل هذا السر تماماً ولما اخبرتها به ابت ان تصدقه

ـ غريب اما كانت قد تناولت بريد اليوم لما زرتها ؟

ـ كلاَّ وانما رأيت الخادم يدخل به وانا خارجٌ

ـ اذاً انت عرفت السر قبلها

ـ عرفته منذ ظهر الامس

ـ عجيب . عجيب . لا اعهد احداً سواي يعرفه

ـ ارجو ان تدعنا من عارفي السرّ الآن فان النقطة الجوهرية التي أسعى اليها هي ان تَتفضَّل عليَّ بالاوراق التي تثبت اني ابن شرعي للورد هركورت سميث ولك الفضل الذي لا يكافأ

ـ لو تأخرت دقيقتين عند عمتك اللايدي بنتن لرأيت الاوراق التي

تبتغيها بين يديها

ـ أأرسلتها اليها ؟

ـ نعم . في صباح هذا النهار . وقبل حادثة الكلب كنت أكتب لها كتاباً افصِّل فيهِ حقيقة السرّ . وهل عرفت انت الحقيقة تماماً !

ـ نعم عرفتها

ـ من اخبرك اياها ؟

ـ ستعرف بعد حين . ولكن قل لي هل مات ابي مسموماً ؟

ـ كلاَّ . هل قال لك مخبرك انه مات كذلك ؟

ـ نعم

ـ والحقيقة لا وانما ادَّعيت يومئذٍ تسمُّمه لكي أنفرّ خادمه لأُبعده عني لانه هو الوحيد الذي كان يعرف السر . (ثم انتبه المستر هوكر فقال) ألعله لم يزل حيّاً وقد عثرتَ عليهِ فاسرَّ لك الحقيقة ؟

ـ نعم كما تقول

ـ مسكين جوزف برون الخادم الودود الامين . اين عثرت عليه ؟

ـ في حانوت في الضاحية الشرقية وقد غيَّر اسمه الى جاكوب داي

ـ وكيف حاله ؟ اظنه اصبح شيخاً الآن

ـ نعم وهو لم يزل يعتبر نفسه فارّاً فيخاف ان يعلن اسمه

ـ فليأتِ اليَّ فاني اتوق الى رؤيتهِ

ـ هو ابو هنري الذي طردتهُ اليوم

ـ اكيد ما تقول ؟

ـ نعم

ـ عجيب . لكم كنت اقول أني آلف ملامح هذا الغلام منذ عهد بعيد ولطالما كان يذكرني بسحنة ابيه

ثم قصَّ ادورد على خاله كيف عرفه وعلم منه الحكاية وقال ؛

ـ اذاً دفعت الورق الى عمتي يا سيدي ؛

ـ نعم يا عزيزي

فابتسم ادورد قائلاً :

ـ لاي غرض ؟

ـ لكي تعلمن لك نسبك وتعرفك انك ابن اخيها اللورد ادورد سميث ولا تضن عليك بابنتها عروساً

ـ ولكن ما الذي حملك الآن على هذا الامر ياسيدي وقد كنت تأباه قبلاً وتكتم السر ؟

ـ أنت تعلم يا دورد اني احبك حب الاب لابنهِ وهل تظن ان حب الاب يتغير مهما تغير قلب الابن ؟

ـ كلاّ . ولكن لم يتغيّر قلبي من نحوك ياسيدي

ـ لا اقول ان قلبك تغير ولكني اخبرك بقضية راهنة . لما كنت الحُّ عليك ان تتزوج ابنتي كنت افعل ذلك لا عن طمع بقلبك لابنتي كما كان قصدي في السنين الغابرة بل عن حبّ شديدٍ لك ولابنتي معاً فكان يلذُّ لي جداً ان اراكما زوجين . ولكن لما رأيتُ أن امنيتي هذه بعيدة المنال أبيتُ وانا احبك جداً ان احرمك مجدك وحبيبتك لويزا بنتن . فتهنأ يا بنيَّ بها .

اسأل الله من صميم فؤادي ان يهنئكما الى الابد

ـ ما اطيب قلبك ايها الخال بل الاب الحنون

وعند ذلك طفر الدمع من اجفان الخال وابن الاخت ووقع احدهما على الآخر وتعانقا

ـ سامحني ياخالي الحنون . فكم اسأت اليك بجفائي لك وكم جرحتك بكبريائي وكم صبرتَ على جهالتي وغروري . بل كم اسأت الى أليس عزيزتي وكم تحمَّلت هي من خشونتي . ألا تسامحني أليس ايها الخال ؟

ـ أليس طيبة القلب جداً يا ادورد وهي التي سامحتك اولاً وهي التى حملتني على ان اعدل عن الالحاح عليك واتركك تتبع هواك وهي تتمنى لك كل خير. ومن اجل كلامها ارسلت الاوراق لعمتك

ـ اين هي الآن ؟ ألا اراها هنا !

ـ اظنها تمشى في الحديقة ولو علمت بقدومك لاسرعت لتراك

وفي لحظة استدعيت اليس وكانت بين يدي ادورد يعانقها عناق الاخت

ـ سامحيني يا اليس كم كدَّرتك واحزنت قلبكِ

ـ عذرتك يا ادورد لما عدت الى رشدي وعلمت ان الامر ليس في يدك . احبك الآن كما تحبني احبك حب الاخت الحنون واحب اللايدي لويزا بنتن لاجلك . اهنئك بها بل اهنئها بك يا حبيبي ادورد

فوقع ادورد ثانية على قدمي اليس يقبل يدها ويحمدها



الفصل العشرون

« ما ليس في الحسبان »

في صباح اليوم التالي ركب اللورد ادورد مركبتهُ وقصد الى قصر كنستون فدفع بطاقته الى البواب يلتمس مقابلة عمتهِ اللايدي بنتن . و بعد هنيهة اقبلت عليه احدى الوصيفات وقالت له :

ـ تقول حضرة اللايدي بنتن انها لا تقبل زيارات الماجنين الهازلين فاياك ان تقصد الى هذا القصر بعد

ـ ما السبب ؟ لم افهم ما تقولين

ـ كذا اقول لك

ثم صعدت في سلم القصر غاضبةً

فبُهت ادورد من هذه المقابلة المهينة وجعل يفكر باسبابها واول ما خطر له ان عمته تأبى عليه انتسابه لها لئلا يسترد منها ثروة ابيه وانها وقد حصلت على الاوراق الرسمية التي تثبت انتسابه صار يسهل عليها ان تنكر دعواه بان تتلف الورق الذي هو حجته . فعاد ساخطاً محترق الفؤاد تارة يلعن عمته لطمعها ويقول : «لو تمنحني يد اليس فاتنازل عن لقبي وحقي من ثروة ابي!» وطوراً يلعن خاله لاجل ارساله الاوراق الى عمتهِ وعدم تسليمها اياه هو . وقد تمادى بالغيظ والحزن فلم يدرِ نفسه الاَّ وهو امام منزله فصعد الى غرفتهِ فوجد بريد الصباح ينتظره فقلَّبه فعثر على غلاف معنون بخط لويزا ففتحه بلهفة وقرأه كما يأتي :

عزيزي ادورد

لا تأتِ الى قصر كنستون قبل ان تذهب الى خالك وتحتال عليهِ لتتحقق امر الاوراق الرسمية منه . ذلك لانه ورد لامي في المساء كتاب بامضاء خالك يخبرها فيه الحقيقة كما علمتها انت من الشيخ المستر داي او بالاحرى المستر برون ويقول انه ارسل لها الاوراق ضمن حقيبة جلد زرقاء مرسلة في البريد نفسه الذي ارسل فيه كتابه . فبحثت امي عن الحقيبة المذكورة بين مواد بريدها فوجدتها ولكن لما فتحتها لم تجد فيها الا ورقاً ابيض. فغضبت وسخطت جداً وانت تعلم كيف تسخط وتغضب وظنت انك وخالك تمازحانها مكايدةً لها اولاً لانها منذ عشرين عاماً رفضت خالك زوجاً لها ثم في هذا العام رفضتك زوجاً لي . فلا ادري هل يجدُّ خالك ام يهزل حقيقةً . وهاك نسخة رسالتهِ لتقرأها لعلك تستنتج منها نتيجة مفيدة في تحقيق الامر لويزا

ثم فتح ادورد الورقة الثانية التي فيها نسخة كتاب خاله فقرأ كما يأتي :

سيدتي الفاضلة اللايدي بنتن المحترمة

تعرفينني واعرفك منذ اكثر من عشرين عاماً يوم كنا كلانا في شرخ الشباب وفي اشد عنفوانه اما الآن فاذا اجتمعنا رأى كلٌّ منا الآخر قد تغيَّر في طبعهِ ومزاجهِ كما تغير في سحنتهِ . فحرارةُ الشباب قد بردت ونزق الصبا قد تحوَّل الى اناة وصبر وحلم

في ذلك العهد كنتُ كما كنتِ في اعلى قمة الشموخ والخيلاء فلما طلبت يدكِ ابيتِ بازدراء واحتقار مع اني كنت اعدّ نفسي اعظم منك

بثروتي بمقدار ما انتَ اعظم مني بحسبك . ولما رفضتني شعرت بجرحٍ في فؤادي لا يبرأ الا اذا اذللتُ كبرياءك . ولذلك صممت ان ازوج اختي من اخيكِ المرحوم اللورد هركورت سميث . وقد حسنتها له واغريته بجمالها وملَّقته بودادها حتى نجح مشروعي . واذ تأكدنا ان ذلك يسوؤك جداً وانكِ قد تحرضين اباكِ على ان يحرم اخاكِ من اللقب والارث اذا تزوج اختي عقدنا الاكليل سرًّا

ولما ولدت اختي غلاماً وشمنا الغلام على ظهره بعلامة صليب وكتب ابوه رقيماً وامضاهُ بخط يدهِ اقراراً بانه ابنه بدليل الوشم لان اختي ماتت على اثر النفاس وبقي الصبي تحت عنايتي ريثما يتسنى لاخيكِ ان يعلن زواجه بعد وفاة ابيهِ . ثم توفي ابوكِ ولحقه اخوكِ على الاثر قبل ان يعلن زواجه السري . فخطر لي حينئذٍ ان ابقي ذلك الزواج مكتوماً الى ان يشب الصبي فازوّجه ابنتي التي ولدت في ذلك الحين حتى اذا تمت هذه الامنية اكون قد نلت وطري في حالةٍ افضل

ولما شبّ الصبي بعد ما بذلت كل غالٍ ورخيص في سبيل تعليمهِ وتربيتهِ وجدت نفسي احبه حباً شديداً وصرت اتمنى ان ازوّجه ابنتي لاجل اني احبه لا لكي اكيدك لان الجرح الذي جرحتني بهِ اندمل على تمادي الزمان

وقد عرضت عليهِ ابنتي واغريتهُ بالثروة الطائلة وبالمجد المخبوء فلم افز بفؤاده . وعند ذاك عرفت انه يحب ابنتك فحاولت ان اثنيه عن حبها واحببه بابنتي فلم افلح . وقد صبرت عليهِ الى الآن حتى قطعت الامل من

استمالتهِ ولذلك رأيت ان اعلن له نسبهُ عن يدك

واصلك صحبة رسالتي في هذا البريد نفسه « حقيبة زرقاء » تنطوي على الاوراق الرسمية التي تثبت زواج اخيك وشخصية اللورد ادورد ابنهِ فافعلي بها ما تشائين

اللورد ادورد شاب نابغة ولطيف وطيب القلب . انصحك ان تزوجيه ابنتك . لا تجدي مثله بين طالبي يدها . واقبلي فائق احترامي

جوزف هوكر

قرأ ادورد رسالة خاله الى اللايدي بنتن مراراً وتأملها جيداً وقابلها بالحديث الذي سمعه منه بالامس وبالدموع التي سكبها على خدهِ عند ما عانقهُ فلم تتراءَ له هزلاً ولا مزاحاً . اذاً ما هو تعليل هذه الاوراق البيضاء في المحفظة ؟ ألعلَّ الاقدار محت نسبه عن تلك الاوراق لكي تحرمه لويزا حبيبتهُ . احتدم غيظهُ واشتد حزنه حتى كادت نفسه تطير شعاعاً فركب مركبتهُ ودرجت به توًّا تسابق الريح الى بيت خاله فدخل المنزل وهو لا يدري بأي لهجةٍ يقابل خاله أبالعتاب ام بالخصام ام بالحيرة فالتقى به في باب الرحبة على اهبة الخروج الى معمله . فلما رآه المستر هوكر وعلى محياه غيهب من الغم كثيفٌ حالكٌ اقشعرَّ بدنه وقال بانبغات :

– ما خبرك يا حبيبي ادورد ؟

– ان كنتَ تمزح يا سيدي فالامر جلل لا يحتمل المزاح فبربك قل لي الحقيقة اين الاوراق ؟

فاجاب المستر هوكر بكل رزانة وجدّ

ـ قلت لك امس اني ارسلتها الى اللايدي بنتن

ـ قل الصدق

فقال المستر هوكر بسخط وقد اكمدَّت ملامحه :

ـ يا لله يا ادورد

ـ وصلت المحفظة مشتملة على ورق ابيض . اقرأ هذا الكتاب

وفي الحال دفع اليهِ رسالة لويزا فقرأها المستر هوكر وشعر أن شاربيهِ يتراقصان . فقال :

ـ ويلاه كيف ذلك ! اين فقد الورق ؟ اي يد لعبت بالحقيبة ؟

ـ اذاً انت تؤكد ان الورق كان في الحقيبة لما ارسلتها؟

ـ من غير بد . تفقدت الورق فيها فوجدته تاماً . ثم اخذت اكتب الرسالة للايدي بنتن وما انتهيت من تحريرها حتى حصلت حادثة الكاب فعالجته وعدت فغلفت الرسالة ولففت الحقيبة وختمتها بالشمع الاحمر ونزلت في الحال ووضعتهما من يدي في البريد

ـ ألا يحتمل ان يكون احد عمال البريد قد سرق الورق ؟

ـ ولكن من يدري ماذا كان في الحقيبة . ولماذا يسرقهُ ؟ وماذا يفيده ؟ . لا ادري . لا ادري . حيَّرني فقد هذا الورق

ـ ابحث الآن بين اوراقك لعله بقي عندك عن سهوٍ

فدخلا كلاهما الى مكتب المستر هوكر وبحثا بين اوراقهِ كلها فلم يجدا لذلك الورق اثراً . فقال المستر هوكر :

ـ يستحيل ان يبقى الورق هنا . بل هو مسروق عمداً والاَّ فما معنى

وجود الورق الابيض في الحقيبة

ـ ولكن كيف يُسرق . انه وايم الحق لامر عجيب

ـ هلمَّ بنا الى قصر كنستون فنتحرى المسألة هناك ونرى المحفظة نفسها لنعلم كيف فُتِحت واختُلِس الورق منها

عند ذلك لم يبقَ ريب عند ادورد ان خاله يصدق في ما يقول فقال :

ـ ولكن اللايدي بنتن لا تستقبلنا لانها ساخطة جداً وقد قصدتُ في هذا الصباح الى قصر كنستون قبل ان تصل رسائلي والتمست مقابلتها فعادت وصيفتها تنقل اليَّ ارعادها وابراقها حتى كأَني شعرت برجة غضبها وانا خارج القصر

ـ اذاً ماذا نفعل ؟ لا بد من الاجتماع باللايدي بنتن وتحقق الامر معها . فمتى وصلنا الى القصر نرى الوسيلة الممكنة لمقابلتها وتفهُّم أمر الحقيبة منها جيداً

وفي الحال ركبا توًّا الى قصر كنستون

الفصل الحادي والعشرون

« قد يسوء العمل مع حيث تحسن النية »

ولما وصلا الى باب القصر ارسلا بطاقة كتبا عليها : « المستر هوكر واللورد سميث يرجوان مقابلة اللايدي بنتن الآن لاجل أمرٍ مهمّ »

فلما قرأت اللايدي بنتن البطاقة لم يبقَ عندها ريب بان المستر هوكر يجدُّ لا يهزل فأذِنت أن يدخلا الى القاعة وثم اقبلت عليهما بمجدها وابهتها

وخيلاءها فوقفا لها وتقدّما فصافحتهما باشّة ثم جلست في كرسي هزّاز من الحرير المخملي كالملكة في سرير الملك فبادأها المستر هوكر بالحديث قائلاً

ـ أظن يا حضرة اللايدي بنتن انكِ وثقتِ برسالتي

ـ من أي قبيل ؟

ـ من قبيل اني مخلص في كل ما كتبت . فقد اعترفت لكِ بمقاصدي السابقة وابنت لك نيتي الحاضرة واظنكِ تعذرينني على القديم وتسامحينني عليهِ وتقبلين مني اللورد ادورد سميث هدية ثمينة

فابتسمت قائلةً : ان تهذيبك للورد ادورد هو الشافع العظيم بك . واني اشاركك بكل احساساتك الجديدة ـ وقد نسيت الماضي ولي رجاء حسن بالمستقبل الجديد ويسرني ان نبتدئ منذ الآن يا مستر هوكر على وفاق . ولم يبقَ عندي ريب الآن انك ارسلت الحقيبة مشتملة على الورق ولكن حيرني امرها فلا ادري كيف اختُلِس منها

ـ هل وصلت الى حضرتك ملفوفة بورقٍ

ـ نعم ومختومة بالشمع الاحمر . ولما فتحتها ذهلت اذ وجدت الورق فيها ابيض . وأقرُّ لك اني أسأت الظن بك في أول الامر ولكني راجعت رسالتك ثانيةً وثالثة فتأكدت من لهجتها صدق كلامك . فماذا تظن بهذه الحادثة الغريبة ؟

ـ لقد حيَّرني امر هذه الحقيبة يا سيدتي فاذا كنتِ قد استلمتها مختومة فلا يمكن ان تكون الاوراق قد سُرقت منها في البريد . وكذلك لا يمكن ان تكون قد فقدت عندي لاني قُبَيل لفها وختمها فتحتها وتفقدتها

جيّداً فلم تنقصها ورقة

ـ هنا العجب . تذكّر جيداً يا مستر هوكر ألا يمكن ان تكون قد غلطت فوضعت الورق الابيض بدل الاوراق المقصودة سهواً ؟

ـ كلاَّ يا سيدتي فقد فتشنا جميع اوراقي فلم انجد اثراً للورق المقصود بينها

عند ذاك استدعت اللايدي بنتن وصيفتها وامرتها ان تستحضر الحقيبة فأحضرتها ملفوفة بالورق الذي لفها به المستر هوكر وشاهدوا جميعاً الشمع الاحمر لم يزل على الخيوط والورق لان اللايدي بنتن قصت الخيوط قصاً . ثم فتحوا المحفظة فرأوا ورقاً أبيض من الجنس الدون الذي لا يوجد مثله في بيت المستر هوكر فتأكدوا ان استبدال الورق حصل خارج بيتهِ فازدادوا حيرة حتى عادوا يخالج ضمير كلٍّ منهم الظنُّ السيء بالآخر . فالمستر هوكر كان يخطر له ان اللايدي بنتن استبدلت الورق بعد فتح المحفظة لكي تخفي نسب ادورد حتى لا يكون ابن اخت هوكر لورداً . واللايدي بنتن كانت تقول بفكرها اذ ذاك : « ألا يمكن ان يكون المستر هوكر كاذباً بدعواه لغاية لا اعلمها ؟ » واللورد ادورد كان يسيء الظن تارة بعمتهِ كما يسيئه بها خاله وتارة يسيء الظن بخالهِ كما تسيئه عمته . ولكن كان كل واحد منهم يغالط ظنه ويؤنب نفسه بسره اذ يرى امائر الجد والاخلاص والاهتمام بادية على جبهتي الآخرين

ولما استغرق الثلاثة في الحيرة تنهد ادورد في خلال سكوت قصير وقال « ايضيع نسبي بضياع هذه الاوراق » ؟

فقالت اللايدي بنتن: كلاَّ اما انا فاكتفي بشهادة المستر برون . واذا رأيته

اعرفه حالاً واثق بهِ . يبقى ان يُعلَن السر للعموم بالصورة المقنعة لئلاَّ يُظَنَّ ان الحكاية ملفقة لغايات مذمومة وأنتما تعلمان الهوان الذي يلحق بنا من انتشار الاعتقاد بتزوير الحكاية

فنهض ادورد قائلاً :

ـ وانا لا اقبل ان يذاع نسبي الاَّ مؤكداً عند الجمهور . فماذا نفعل الآن؟

فقال المستر هوكر : نستدعي المستر برون ونستجو به لعله يعرف شهوداً آخرين لا اعرفهم يعززون شهادته . ومع ذلك نتحقق امر الحقيبة في دائرة البريد لعلنا نظفر بالاوراق

فقالت اللايدي بنتن : ـ ليس لنا سوى ذلك

وفيما كان اللورد ادورد على مثل الغضا من جراء هذه الحادثة اذ كان مجده وغبطته موقوفين على وجود هذه الاوراق مثَلَ احد الخدم يستأذن اللايدي بنتن بدخول رجل غريب لم يشأ ان يعلن اسمهُ

فتمرمرت وتبرمت قائلةً : يغيظني جداً هؤلاء الذين يطلبون مقابلتي من غير ان يُعلنوا اسماءهم . فقل لهذا الرجل انه لا يدخل ما لم يعرّف نفسه

فقال لها الخادم

ـ الححتُ عليهِ بذلك فاصرَّ على كتمان اسمهِ وقال انه يبتغي مقابلة حضرتكِ لامر ذي شأن

فقالت : يدخل الى القاعة الثانية

وكان اللورد ادورد جالساً مقابل باب القاعة فبعد هنيهة رأى شخصاً يتبع الخادم مارًّا امام الباب فما شعر الاَّ انهُ يندههُ « مستر داي

مستر داي » فالتفت المارّ فرأى ادورد وسمعه يقول « هو برون الخادم يا سيدتي إيذني له ان يدخل الى هنا » فقالت «ليدخل» فاستدعاه ادورد

ولما دخل الشيخ جون داي او جوزف برون دهش اذ رأى أولئك الثلاثة في مجلس واحد واول شيءٍ خطر له هو ان ادورد واللايدي بنتن يحرّضان المستر هوكر ويحتالان عليهِ لكي يظهر الاوراق

فتقدم وانحنى امام اللايدي بنتن ثم انحنى امام البقية

فقالت له: ألا تزال تذكرنا يا مستر برون بعد هذا الغياب الطويل؟

– وهل انساكم يا مولاتي . لولم تقضِ عليَّ التقادير بالاختفاء لما فارقتكم لحظة

فقال المستر هوكر : الذنب ذنبي يا مستر برون فهل تسامحني ؟

– الحمد لله ان عاقبة كل ذلك للخير ان شاء الله

فقال له ادورد باضطراب :

– اتيت في حينك يا مستر برون فاننا في اشد الحاجة اليك

– لماذا ؟ أتفاهمتم كفاية ؟

– بل تراضينا في الحال يا سيدي برون ولكن الاوراق . الاوراق مفقودة . ما انكد حظي !

– واذا كانت موجودة افيسمح بها المستر هوكر عن طيب خاطر ؟

فقال المستر هوكر : بل اني وهبتها بسرور من نفسي فاذا بي اهب ورقاً ابيض

فقال ادورد : نحتاج الى شهادتك ومعلوماتك يا مستر برون

فقال برون : لا حاجة الى شيء فها الاوراق

وقدَّمها للايدي بنتن فدهشوا جميعاً وسُرِّي عنهم كأنَّ خطباً عظيماً نزل عن صدورهم

فقال المستر هوكر : كيف اتصل الورق بك؟ فقد كدنا نختنق غماً ونتفتت غيظاً بسبب فقده

فقال برون : اعذروني وسامحوني فانا سبب استلابه من منزل المستر هوكر . وقد استلبته لغاية حسنة فارجوكم ان تسمعوا الحكاية وثم فاحكموا كما تشاؤون فاني كنت ولا ازال خادمكم الطائع الامين

فقالت اللايدي بنتن : اقعد وتكلم يا مستر برون فاني لا اشك بحسن نيتك

ثم جلس الشيخ على كرسيّ وقال :

رأيت هذا الشاب لأول مرة فلهف اليهِ فؤادي و بعد حديث قصيرٍ عرفتُ انه ابن اخت المستر هوكر فرجحت انه ابن المرحوم اللورد هركورت سميث سيدي القديم . فحثثته اذ ذاك ان يبحث عن نسبه . وقبل ان يمضي توسلت اليهِ ان يتوسط لدى خاله ان يستخدم ابني في منزله ففعل وخدم ابني هناك حتى امس . وقد سعيت الى استخدامه عنده لا لاني في حاجة الى ماهيته بل لكي ينقل لي اخبار سيدي اللورد وعلاقتهِ مع خاله . وقد اطلعته على السر واخبرته حكاية فراري وتغيير اسمي ولا بد ان يكون اللورد ادورد قد رواها لكما . وبالفعل كان ابني ينقل لي كل اسبوع اخبار بيت المستر هوكر

وقد علمت من هذه الاخبار ان المستر هوكر لا يعلن الاوراق التي تثبت نسب سيدي اللورد ما لم يتزوج اللورد ابنته وعلمت ان اللورد يأبى ان يتزوجها . فصرت اخاف ان المستر هوكر يتلف الاوراق لكي يبقى نسب ابن اخته مجهولاً اذا يئس من اقناعه بتزوج ابنتهِ . فحرتُ في امري ماذا افعل لكي اسرق ذلك الورق لاني لم اكن اعلم اين يودع . واخيراً مرَّ بي سيدي اللورد اول امس ومن حديث لحديث فهمتُ منه ان الاوراق محفوظة ضمن حقيبة جلد زرقاء صغيرة توضع في الجيب وان الحقيبة مودعة في دُرج مكتب المستر هوكر . فذهبت بعد مضي سيدي اللورد الى بيت المستر هوكر واستدعيت ابني الى خارج المنزل واخبرته عن موضع الاوراق وعلامة الحقيبة والححت عليه ان يجدَ وسيلة لاستراق تلك المحفظة

أما ما كان من ابني فانه كان يلاحظ ان المستر هوكر لا ينزل من البيت في الصباح ما لم يجلس الى مكتبهِ ويقلب في أوراقهِ ويكتب ويقرأ . فراقبه في صباح الامس حتى لاحظ انه جالس الى مكتبه وقد فتح الدرج . ومن حسن المصادفة رآه يقلب المحفظة بين يديه . وكان يعلم انه يحب كلبه جداً ويُدلله ويُعنى بهِ فأخذ هنري قليلاً من الفلفل الاحمر الحار (الشطة) وفرك به شفتي الكلب وأنفهُ . وكان مستعداً لهذا العمل منذ المساء السابق متوقعاً الفرصة المناسبة . فتهيجت شفتا الكلب جداً والتهب فصار يثبُ ويعوي حتى سمع المستر هوكر عواءه فخرج من غرفته مبغوتاً ليرى ما الخبر فدخل ابني وفتح الحقيبة وأخذ ما فيها من الاوراق ووضع بدلها ورقاً أبيض لكيلا

تتراءى فارغة وأقفلها وردها كما كانت وعاد. ومن حسن الحظ ان المستر هوكر طرده من خدمته على اثر الحادثة

فبهت الجميع لهذه الحكاية وضحكوا. وأما المستر هوكر فقال :

ـ عجيب . لم يخطر لي وانا متحير لفقدان الاوراق اني تركت الدرج مفتوحاً والحقيبة والاوراق منثورة على المكتب وهرعت الى الكاب لارى ما امره . ذلك لانه لم يكن ليلوح في بالي ان احد الخدم يجسر ان يدخل الى غرفتي. ثم ماذا يا مستر برون ؟

ـ عفوك يا مولاي . اننا فعلنا ذلك لغاية حسنة

ـ لا بأس يا مستر برون لست الومك على ذلك أتم قصتك

فاسترسل المستر برون في حديثه :

ـ ولما صارت الأوراق في يدي عقدت النية على ان ادفعها للورد ادورد فذهبت في هذا الصباح الى الفندق الذي ينزل فيهِ فلم اجده هناك فقلت لا بأس اعود اليه بعدئذٍ. ثم خطر لي ان اذهب الى منزل المستر هوكر بحجة ان اسأل عن سبب طرد ابني ولكن قصدي ان استفهم باسلوب خفي عما اذا كان المستر هوكر قدعلم بسرقة الاوراق. ولما وصلت الى المنزل سألت الخدم عن سيدهم قالوا « اتى المستر ادورد اليهِ في هذا الصباح لامرٍ مهم ثم سمعناهما يقولان هلمَّ الى قصر كنستون » فخطر لي حينئذٍ ان آتي الى هنا لارى ان كنتما هنا ولاي سبب انتما هنا لعلني اجد الفرصة مناسبة لعرض الورق فوجدتها مناسبة والحمد لله

وكان المستر هوكر واللايدي بثن واللورد سميث يسمعون حكاية

المستر برون ويبهتون حتى انتهى فضحكوا من هذه الحيلة واعجبوا بحرية ضميره في الرواية وبرروا عمله لحسن غايتهِ وأثنوا على غيرتهِ

ثم تناولت اللايدي بنتن الاوراق وفضتها فوجدت كتابة القسيس التي تثبت صحة عقد الزواج وامضاآت العريسين والشهود وكتابة اخرى تثبت عماد اللورد ادورد سميث بامضاء القسيس وامضاء ابيه وكتابة اخرى من ابيه تثبت شخصيتهُ بدليل علامة الوشم . ثم رآها ادورد واحدة واحدة وكان يتهلل وجهه فرحاً وسروراً

الفصل الثاني والعشرون

« بر بير »

عند ذلك وقفت اللايدي بنتن وتقدمت نحو اللورد ادورد فنهض في الحال وتقدم اليها فمدت اليه يدها فقبلها وكان وجهها يطفح سروراً وقد انقشعت غياهب الخيلاء عن محياها وتراءت اودع من الحمامة وقالت له ودمع الفرح يطفر من عينيها :

ـ لا اقدر ان اصف لك يا حبيبي ادورد سروري الآن (نخفق قلب ادورد عند سماع هذه الكلمة) سرور يقابل حزن عشرين سنة قضيتها في الحسرات على ابيك . ذلك لاني اعتبر ان الله ردَّ لي اخي في جسم ابنهِ فلك الآن عندي معزة الاخ وابن الاخ . وازيد ايضاً معزة الصهر لاني اعرف الحب الشديد المتبادل بينك وبين لويزا ابنة عمتك . وانا اعتبر انك كنت تستحق يدها بلا لقب فكيف وانت الآن شريف وقريب بل

ابن . واني لافخر بك يا حبيبي ادورد بما رأيته من ارتقائك السريع العجيب في الهيئة الاجتماعية وعلى الخصوص في السياسة والصحافة وآمل ان ارتقاءك لا يقف عند هذا الحد بل يستمر الى ان يتم لك كل متمنّى . ثم اني اشكر عناية خالك المستر هوكر الذي ربّاك وعلمك لكي تكون اهلاً للقب سميث الشريف بل اني اهنئه بك لانك ابن اخته كما انك ابن اخي

فاجابها اللورد ادورد قائلاً :

اني اشكر الله لالهامه اياي ان احب ابنة عمتي حبًّا فوق العبادة لاني اعتقد ان هذا الحب كان مفتاح اسراري ومرقاتي الى مجدي . نعم ان لخالي الفضل الاول في تربيتي وتعليمي ولكن لحبي للويزا الفضل الاعظم في طلاب العلى والمجد . بل ان تمسكك يا مولاتي بشرف اجدادنا وحرصك عليه استكدًّا قواي لكي اطاول هذا المجد الاثيل واسعى اليه . فقلبي ربيب آل بنتن كما ان عقلي ربيب خالي الفاضل

عند ذلك تقدم المستر هوكر اليها فمدت اليه يدها فقبلها قائلاً :

اني احمد الله على ان حرصي على ابن اخيكِ يا حضرة اللايدي لم يفضِ الى نتيجة غير محمودة . فها هو لائق لان يتلقَّب باسم آل سميث النبلاء

— لا ريب عندي يا مستر هوكر انك قصدت كل خير له وقصدك يبرر عملك . فالماضي مضى ونحن الآن اصدقاء

— انى امتنٌّ جداً لفضلكِ يا سيدتي

— تأذنون لي ان اترككم دقيقة

ثم خرجت اللايدى بنتن الى خدر ابنتها لويزا فوجدتها تقرأ . والحقيقة ان لويزا كانت تتظاهر قارئة لانها كانت عالمة بوجود ادورد وخالهِ في القاعة ومنتظرة نتيجة المقابلة بقلبٍ خافق . فقالت امها باسمة :

ــ أتريدين ان تقابلي اللورد ادورد سميث يا لويزا ؟

ــ أتوبخينني يا اماه ؟

فضحكت اللايدي بنتن وقالت : ــ كلاَّ بل اسألك غير مازحةٍ

ــ لماذا اقابلهُ ؟

ــ لانك تحبينه

فاحمرَّ وجه لويزا وكاد الدمّ يقطر منه

ــ لا تتورَّد وجنتاكِ يا لويزا . لم اجهل حبكِ لادورد ولكني جهلتُ انه ابن خالكِ وانه لا يقل عنكِ في شرف حسبه

فصاحت لويزا : هل ثبت نسبه يا اماهُ ؟

ــ اذاً انت عالمة بحكاية نسبهِ

ــ نعم قرأت تحرير خالهِ لكِ فسامحيني

فابتسمت اللايدي بنتن وامسكت لويزا بيدها وادخلتها الى القاعة وقدَّمتها الى ادورد وكان ادورد قد دنا منها فقالت اللايدي :

قدِّمي يدكِ يا لويزا الى خطيبك اللورد ادورد سميث ابن خالكِ فانه يستحقكِ بشخصيتهِ اكثر مما يستحقك بنسبهِ

فتناول ادورد يد لويزا وقبلها وقلبه يَثِبُ في صدرهِ خفوقاً. ثم قالت اللايدي بنتن :

انها الآن خطيبتك يا حبيبي ادورد وغداً تكون زوجتك ان شاء الله فقبلها يا ادورد وقبليه يا لويزا

فتعانق الحبيبان في العلانية العناق الذي كانا يشتهيانه في الخفاء ويكفهما عنه العفاف . ثم صافحت لويزا المستر هوكر فهزَّ يدها والدمع ملء عينيهِ قائلاً : — اني اسرُّ جداً يا حضرة اللايدي لويزا ان ارى الى جنب ادورد الذي ربيته ابناً وحيداً لي ابهى نبيلات انكلترا واجملهنَّ خُلقاً وخَلْقاً

— كنت يا مستر هوكر ابا اثنين فصرت ابا ثلاثة

— اشكر لطفك ايتها العزيزة

عند ذلك قالت اللايدي بنتن : في هذا المساء نتمشى في هذا القصر جميعاً . ونفرح معاً

فقال ادورد : وسترين يا عمتي المحبوبة ابنة خالي بل اختي أليس وتسرين بأدبها وجمالها

— لا ريب عندي انها تضاهيك في كل محمدة لانكما غرس يد واحدة

ثم خرج المستر هوكر وبقي ادورد في بيت عمتهِ حتى المساء

الفصل الثالث والعشرون

« حب وعهد في ساعة واحدة »

وما سدل الليل سجوفه حتى كان قصر كنستون يتألَّق ابهة وسناءً وقلب لويزا يرقص بهجة وهناءً واللايدي واللورد بنتن واللورد روبرت يتهللون سروراً لتحققهم ان ادورد نسيبهم ولانهم كانوا يحبونه جداً لنبوغهِ

ولما كانوا يقدّرونه له من المستقبل المجيد في عالم السياسة . وكل ما كان عند اللايدي بنتن من الكبر والصلف قد لاشاه حبها له وحنانها اليهِ لانه ابن اخيها . اما ادورد فلم يكن ليرتوي من النظر الى لويزا ومحادثتها وملاطفتها حتى انه كاد يلتهمها حباً بعينيهِ كما التهمها بقلبهِ لانها كانت وميض بشر لهُ وينبوع ايناس

وقد احتفى الكل بالمستر هوكر و بأليس ابنتهِ وأعجبوا بما رأوه من جمالها و بهائها وجلالها وحسن روائها حتى ان اللايدي بنتن لم تكن لتتوهمها الاَّ سليلة النبل والشرف

وكان في ذلك المساء ان روبرت اعجب غاية الاعجاب بأليس فأولع بها وظلّ يحتفل بها ويجاملها حتى لاحظ الكل أمره معها . فبعد تناول العشاء وتفرقهم ازواجاً في قاعات القصر وشرفاته اخذت اللايدي بنتن يد ابنها وادخلته الى غرفتها وقالت لهُ باسمة :

ـ اراك يا ولدي روبرت تحتفل كثيراً بمس هوكر

ـ أليس من الواجب يا اماه ان نحتفل بالضيوف ؟

ـ نعم واجب . ولكنك اقتصرت على الاحتفال بأليس وحدها فلا اظن هذه الحفاوة كلها من قبيل الواجب بل هناك داعٍ اكبرلها . داعٍ من القلب . أليس كذلك يا روبرت ؟

فابتسم روبرت قائلاً : وهل من مانع ان احتفي بها كحبيبة يا أمي ؟

ـ كيف ترى أليس يا روبرت ؟

ـ اني اراها آية جمال وكمال وادب . هل انا غلطان ؟

ـ كلاّ يا روبرت . اني معجبة بها وأراها لائقة بقصور الامراء فهل تشاء ان تكون زوجة لك

ـ كذا افتكر يا أماه فاذا كنتِ وابي ترضيانها فاني أسرُّ بان تحققا امنيتي

فاستدعت اللايدي بنتن زوجها وسألته عن رأيه فوافق رأيها بسرور . وقرّرا أن يسألها روبرت اولاً عن رغبتها بأسلوب بسيط . وفي الحال ذهب اليها وانفرد بهـا في الشرفة وحادثها طويلاً احاديث مختلفة حتى تطرّق معها في الكلام الى الحديث الآتي :

ـ لي الأمل ان تكوني مسرورة في هذا المساء يا مس أليس

ـ لا اظنك تشك بذلك يا حضرة اللورد

ـ اذاً أعدُّ نفسي سعيداً

ـ أنا السعيدة يا سيدي . بل ارى ان السعادة محصورة في هذا القصر المجيد

ـ اذا كان هذا ما تعتقدين ياسيدتي فان القصر يتشرف بان يكون مقامك الدائم اذا شئتِ

فاقشعرّت اليس لهذا القول ولم تجب فعاد روبرت يقول لها : لِمَ سكتِّ يا عزيزتي ؟

فقالت متلعثمة : هل تعني ما قلتَ يا سيدي ؟

ـ ان ما اقوله هو امنيتي فهل يسوؤكِ ؟

ـ كلاّ . وانما زعزع قوامي لانه سعادة مفاجئة

ـ كذا كانت سعادتي في هذا المساء يا حبيبتي . وما اعظم السعادة اذا

كانت مفاجئة

ـ اني اخاف يا عزيزي روبرت ان تكون هذه السعادة المفاجئة حلما سريع الزوال

ـ لا سمح الله يا اليس

فتنهدت اليس متمتمة لنفسها : ـ اشكر الله لانه لم ينس صبري واخلاصي ثم رفعت صوتها قائلةً : ـ ولكن ....

ـ ماذا ؟

ـ ارى ان بيني وبينك يا سيدي عقبةً صعبة المرتقى جدًّا

ـ لا عقبة تستطيع الحيلولة بين القلوب المتفاهمة . فماذا تعنين ؟

ـ أنسيتَ ان سيادة اللايدي بنتن والدتك قد انكرت يد اللايدي لويزا على ادورد ابن عمتي لانها كانت تظنه من العامة لا ينبض فيه دم النبلاء ؟

فضحك روبرت قائلاً : ـ حقكِ أن تظني هذا الظن . ولكن لا اخفي عليكِ ان سرور أمي بادورد ابن اخيها خفَّف جدا من غلوائها وازال كل حقد من قلبها على ابيك وصارت تنظر اليه كصديق كبير عريض الجاه عالي المقام . وادورد نفسه لم يدَّخر جهداً اليوم بالتأثير على والديّ ان خاله المستر هوكر رجل عظيم في عقله نبيل في قلبه شريف في مبادئه وانه اي ادورد اذا كان يتَّصف بحسنهُ فلأَن خاله ربَّاهُ على يديه . وقد عرَّض ادورد بذكرك كثيراً في هذا النهار وامتدح صفاتك حتى تعلقنا كلنا بك قبل ان نراك ولما رأيناك وجدنا الخُبْرَ افضلَ من الخَبَرِ

ـ لا ريب ان ادورد خلبكم بسحر بيانه فأوهمكم ان لي محاسن تستحق

ثناءكم فكم انا مدينة للطفه

ـ لم نعد في حاجة الى شهادة يا أليس . ها انتِ بيننا وكلنا معجبون بما أنسناه من لطفكِ وادبك . فاذا كنتِ تتوهمين ان والديَّ عقبة في سبيل حبنا فأنت مخطئة لاني استشرتهما بالامر فأظهرا تمام الرضى

ثم تناول روبرت يد أليس وهمَّ ان يقبلها فاجتذبتها منه قائلة : عفوك يا حبيبي أنتَ استشرتَ ابويك وانا لي ابٌ

ـ أتظنينه يأبى ؟

ـ يستحيل ان يأبى ولكن واجب الادب ....

ـ يقتضي ان يُستشار . نعم يستشار . لا انكر ذلك . وانما خاطبتك انا اولاً بهـذا الموضوع لكي اعلم رغبتك حتى اذا استحسنتِ الامر كلم ابواي اباكِ بشأنه وها انا مخبرهما بنتيجة حديثنا

وعند ذلك انفرد روبرت بأبويه واخبرهما خلاصة حديثه مع أليس فانفردت اللايدي بنتن بالمستر هوكر وقالت :

ـ اي شيء كان ألذَّ لك في هذا المساء يامستر هوكر ؟

ـ ان ارى ادورد ولويزا يتمازحان فيتغاضبان هنيهة ويتراضيان اخرى فكانت كل حركة من حركاتهما نقرة على وتر السرور في قلبي . اما لذ لك ذلك يا حضرة اللايدي بنتن ؟

ـ بالحقيقة سرَّني جدًّا ثم سرَّني شيء آخر مثله ايضاً . أما لاحظته ؟ فضحك ضحكة المتجاهل قائلاً : ماذا ؟ لم ألحظ غير امر ادورد ولويزا

ـ يستحيل الاَّ ان تكون قد لاحظت تجامل أليس وروبرت

ـ نعم لاحظت شيئاً من ذلك فنسبته الى لطف اللورد روبرت الفائق نحو ابنتي ولا سيما لانها ضيفته لاول زيارة

ـ ما هو لطف يا مستر هوكر بل هو حبٌّ

ـ لا أظن اللورد روبرت يعبأ بمثل أليس يا مولاتي

ـ ليست لويزا بأفضل من أليس يا مستر هوكر . والذي ربى ادورد هذه التربية السامية ربى أليس . وكما ربيت لي ادورد ربيت لك روبرت فأليس وروبرت حبيبان الآن فلا اظنك الاَّ تسر بأن يكونا زوجين

ـ ولكن هل تحققتِ ما تقولين يا سيدتي ؟

ـ نعم فقد اطلعت على افكار روبرت بهذا الشأن وهو نقر على وتر قلب أليس فسمعهُ مجاوباً لوتر قلبه . وانا واللورد بنتن فرحان بهذا التوافق . وانت ؟

ـ لي الفرح الاكبر

ثم تصافحا وامتزجا بين البقية واعلنت اللايدي بنتن الامر للجميع فبادلوا بعضهم التهاني واتموا سهرتهم في منتهى الهناء والصفاء

. . . .

بعد بضعة أسابيع نشرت جرائد انكلترا ان قد زفت اللايدي لويزا بنتن الى ابن خالها اللورد ادورد سميث والمس أليس هوكر الى اللورد روبرت بنتن في مساء يومٍ واحد في قصر كنستون في احتفال انيق حضره معظم نبلاء لندن وكبارها

